ظـاهرة الحـزن الرومانـسى فى أشـعار الـشعراء الـرواد العـراقيين للشعر الحر بدر شاكر السياب، نازک الملائكة، عبدالوهاب البياتى

الدكتور أبوالحسن أمين مقدسى

أستاذ مشارک بجامعة طهران[1]

الدكتور عادل آزاددل

أستاذ مساعد بجامعة المحقق الأردبيلى

(از ۱۳۵ تا ص۱۷٦)

تاريخ دريافت مقاله ۸۹/۱۲/۲۳، پذيرش ۹۰/۰۱/۱٤

الملّخص:

إن الحزن من الموضوعات الشعرية التى يشعّ منذ العصر الجاهلى من خلال الأشعار الرثائية التى تزخر بالعاطفة و المشاعر الحزينة الوجدانية . لكنه ارتقى منذ العصر الحـديث خاصـة منـذ الفترة الرومانسية بحيث لم يكن ليبرز من خلال الأبيات الشعرية المعبرة عن تجربة شعرية رثائية فحسب بل أصبح كموقف ذاتى أو مزاج فطرى يصطحب أكثر الموضوعات الـشعرية و يـصبغها بطابع حزين . و الشعراء الرواد العراقيون للشعر الحر أى بدر شاكر السياب و نازک الملائكـة و عبد الوهاب البياتى بما أنهم قد مرّوا فى بداية مسيرتهم الشعرية بالإتجاه الرومانسى فصار الحـزن سمة بارزة تظهر من خلال الموضوعات الشعرية المطروقة عندهم كالحب و الغربة و الموت و ... . هذا المقال يأتى ليحدّد أولاً : العوامل التى تضخم الحزن الرومانسى عند الشعراء الرواد ، ثانيـاً : ليدرس تناسق الصور الفنية مع التعبير الحـزين الرومانـسى و يـرى أخـيراً هـل إنهـم ـ رغـم إتجاهاتهم المختلفة فى مسيرتهم الشعرية ـ حذوا حذو الرومانسيين الكبار أم لا ؟

الكلمات المفتاحية: بدر شاكر السياب، نازک الملائكة، عبـد الوهـاب البيـاتى، الحزن، الحب، الغربة، الموت، المدينة.

---

[1] أستاذ مشارک بجامعة طهران Abamin@ut.ac.ir

Archive of SID
www.SID.ir

توطئة:

ظاهرة الحزن من الموضوعات الشعرية التی نجد حضورها منذ العصور الأولی للشعر العربی الكلاسيكی فی إطار الشعر الرثائی بأنواعه الثلاثة أی«الندب و التأبين و العزاء» (شوقی ضيف، ص ۲۰۷) و الذی كان يزخر بالعاطفة و المشاعر الحزينة الوجدانية و يبدو أن هذا النوع الشعری قد إرتقی خلال الأعصر حتی إستوی شكلاً من أشكال الأدب و عناصره فی العصر الحديث خاصة منذ الفترة الرومانسية.

منذ هذه الفترة ليس الحزن ليأتی عند تجربة شعرية رثائية حزينة و حسب بل إنه يأتی كموقف ذاتی أو مزاج فطری يصطحب أكثر الموضوعات الشعرية و يصبغها بطابع حزين بحيث نری عند بعض الشعراء كالشابی عندما يتحدث عن الطبيعة المثيرة للمتعة و السرور و الجمال فإذا بالحزن ينبثق من وجدانه فيحيل ما كان يفترض أنه مصدر للمتعة و السعادة مثاراً للشكوی و الألم و الحسرة و الأسی، من هنا لا يتخذ الإحساس بالحزن عند الرومانسيين أبعاداً واضحة الحدود فيأتی إحساساً متناثراً و الذی يلفت الإنتباه فی مجال الحزن فی الشعر العربی الحديث هو أن بعض الموضوعات قد أصبحت من الوجوه و المظاهر التی تثير الحزن عند الشاعر، و يبدو أن الظروف و الحوادث التی تطرأ علی العالم العربی و بالتالی علی الشاعر العربی الحديث تقف وراء ذلک.

إن رواد الشعر الحر العراقيين الثلاثة أی: بدر شاكر السياب، نازک الملائكة و عبدالوهاب البياتی من الشعراء المعاصرين الذين بدأوا مسيرتهم الشعرية بدايةً رومانسيةً فهم تناولوا فی أشعارهم أكثر الموضوعات الرومانسية كالإغتراب، و الطبيعة و المدينة و الحب و العودة إلی الماضی و الطفولة، و الحنين. كما تناولوا الحزن كموضوع يصحب أكثر الموضوعات المذكورة أعلاه. فقد عاش السياب منذ طفوليته حتی أواخر عمره حياةً مليئةً بالأسی و الحزن و الفراق بحيث نری أصداء ذلک فی أكثر أشعاره، و امتاز شعر نازک بالحزن و الشجن الذی يشوبه حس إنسانی عال، و ظَلَّ هو سمة غالبة علی شعرها و البياتی بما كان قد عرف الحزن منذ

www.SID.ir

طفولته فی حی قریب من المقابر و المسالخ و جرّبه طیلة حیاتـه بـسبب الأحـداث و الظـروف الخاصة، یستشف الحزن من طیات أشعاره.

ثمة دراساتٌ تدرس أشعار السیاب و نازک و البیاتی مشیرةً إلی مـضامینها و فنیتـها مـن أبعاد مختلفة و متفاوتة. إنَّ حیدر توفیق بیضون أثناء دراسته أشعار السیاب یشیر إلی الحـزن المسیطر علی أشعاره قائلاً : «إن رحلته العامّة فی الحیـاة قـد إتّـسمت علـی وجـه التحدیـد بالقساوة و المعاناة ممّا طبع شعر السیاب بمسحة الحزن ... فهو الذی نشأ یتیماً محروماً من حنان الأمّ و شبّ و ترعرع فی أرض التقلبات السیاسیة و الوظیفیة لیموت وحیداً». (حیـدر توفیـق بیضون، ص ۱۱) إنه فی معرض حدیثه عن المرحلة الرومانسیة عند السیاب یقول: «إن الهموم التی کانت تحفل بها نفسه لم تکن سوی هموم عاطفیة سمتها التقلب بین الأمل و الیأس و القرب و البعد و الحلم و الواقع فضلاً عن التنازع الحادّ المخذول للحبیبة الدائبة الغائبة المقبلة المتمنعـة و ما إلی ذلک من أضغاث الحبّ الفاشل الحامل هزیمته بنفسه». (المـصدر الـسابق، ص ۳۶) و إحسان عباس هو باحث آخر یمعن النظر فی بعض أشعار هؤلاء الشعراء الثلاثة الـتی یـسودها جوّ رومانسی حزین و یسرد العوامل المثیرة للحزن فی تلک الأشعار (الحب عند نازک ، الغربة عند السیاب و المجتمع عند البیاتی) مشیراً إلی المظاهر الفنیة التی خلعهـا الإحـساس بـالحزن علی القصیدة (إحسان عباس ،ص ۳۴- ۴۵). و إیمان یوسف بقاعی عند مناقشته حیاة نازک و أشعارها یعتبر الحزن سمة غالبة علی البواکیر الشعریة أی«مأساة الحیـاة» و دیـوان «عاشـقة اللیل» لدیها و یعُدُّ الحب و الموت و التشاؤم من أسباب إثارة الحزن الرومانسی عندها (إیمـان یوسف بقاعی، ص ۴۲-۵۷). و ناهدة فوزی تتناول الحزن عند البیـاتی و لا تقـوم إلا بـذکر العوامل الباعثة لتلک الظاهرة ، منها : الحب ، التشاؤم ، المجتمع، و الغربة. (ناهـدة فـوزی، ص ۶۶-۸۴). و یعُدُّ محمد راضی جعفر الغربة من بواعث الحزن عند الشعراء الرواد العراقیین قائلاً : «و لا شکّ فی أن إغتراب طلیعة الشعراء فی هذا القرن و ... قادهم إلـی محاکـاة الرومانـسیة الغربیة. یستوی فی ذلک شعراء الوطن العربی و الشعراء العرب فی المهاجر فأخذوا مـن اللیـل أنیساً و تاقوا إلی حیاة الکوخ و اعتزلوا المدینة و تغنّوا بالألم و صار الحزن ندیماً لهـم» (محمـد

www.SID.ir

راضی جعفر، ص۲). کما أشار فی بحثه إلی الظواهر الفنیة التی سببها الحزن الناتج من الغربة. و السعید الورقی هو باحث آخر یعدد الوجوه المختلفة الباعثة الحزن فی الشعر العربی الحدیث متمثلاً بأشعار الشعراء العرب المعاصرین، منهم نازک و السیاب مکتفیاً بذکر أحد العوامل المثیرة لظاهرة الحزن عندهما. فهو یعتبر الخیبة فی تحقیق مثالیات الذات عاملاً فی الشعور بالحزن عند نازک (السعید الورقی، ص ۲۵۷) و یذکر الموت کعامل رئیس لإثارة الحزن عند السیاب (المصدر نفسه، ص ۲۷۳-۲۸۰).

هذه الدراسات بما أنها تذکر بعض العوامل المثیرة للحزن لدی السیاب و نازک و البیاتی و تترک البعض الآخر، أولا تشیر إلی الظواهر الفنیة فی أشعارهم المنطویة علی الحزن الرومانسی إلا قلیلاً فتتصدی هذه المقالة للکشف عن بواعث الحزن بکاملها متمثلةً بأشعارهم فی دواوینهم کلها و فی کل مراحلهم الشعریة التی تستشف منها الرائحة الرومانسیة، کما تهدف إلی دراسة السمات الفنیة التی جاءت جرّاء التأثیر النفسی الذی یترکه الحزن الرومانسی فی أشعارهم، ثمّ تتناول الألفاظ و التعابیر و التصاویر الشعریة عندهم لتری هل تشترک اللغة الشعریة لدیهم عند التعبیر عن إحساسهم الحزین أم لا ؟

کما أسلفنا، کان شعر الرثاء فی العصور الماضیة هو النوع الشعری الذی یمثل الإحساس بالحزن عند الشاعر . فکان الرثاء تعبیراً عن خلجات قلب حزین ، فیه أنة و لوعة و حسرة و لذلک یعتبر من الموضوعات القریبة إلی النفس. کان الشاعر یتخذ فی رثائه ثلاث خطوات : فهو مرة یبکی و ینوح علی الفقید و مرة أخری یندبه بألفاظ حزینة و مؤلمة و فی صورة ثالثة یؤبنه تأبیناً رائعاً و یشید بخصاله و یذکر فضائله و یعدد محامده ، کما نراه أحیاناً یتجه إلی التفکیر فی رحلة الحیاة و مصیر الناس و نزول البلاء و ضعف الإنسان أمام صروف الدهر و مصائبه و یدعو إلی الصبر علی الشدائد.

کانت هذه الأشعار الرثائیة تفیض تفجعاً و حسرة علی المیت کما کانت تصور مشاعر الوجدان الحزینة للشاعر حیال حادثة الموت الذی یهلک عزیزاً من الأهل و الأصدقاء و تبعاً لذلک الإحساس و الشعور تأتی تلک الأشعار عاطفیاً .إن الشاعر أبوذؤیب الهذلی الذی قد

www.SID.ir

أفجعه الموت بأولاده السبعة (أو الخمسة) يتحسر على فقده إياهم و يبكيهم و يقول إنّني سعيتُ أن أدفع الموت عنهم و لكن إذا جاء الموت لايمكن الفرار عنه. رثائه هو نوحة الأب على فلذات أكباده قد أطاح بهم الموت و أصبح عيشه غصةً و غماً و متعباً و صارت الدموع و الحسرات نصيبه فی الحياة بعدهم و لذلك جاء شعره عاطفياً نابعاً من صميم فؤاده. لكن الذی تفقده هذه الأبيات هو أن خيال الشاعر لا يجول فيها فی إيجاد تصوير فنی نابع عن الأثر النفسی الذی تركه الحزن فی نفسه و يصور حاله الحزين بعد موت أبنائه و لا غير . (الأب لويس شيخو اليسوعی،ص۲۲۰-۲۲۱) .ومن الشعراء الآخرين الذين برعوا فی الرثاء و إظهار الحزن هو الشاعرة الخنساء التی رثت أخويها معاوية وصخراً فی عدة قصائد. إنها تندب فی قصيدة «رثاء صخر» صخراً فتلتاع لوعةً شديدةً و من فرط حزنها على أخيها تبدأ قصيدتها بأسلوب تجاهل العارف و تسوق أدلة عديدة لبكائها عليه و تقول إن عينه ما دامت هی تعيش تبكی عليه و لا تجف من الدموع ثم تبدأ فی تأبينه و تَعداد مكارمِه. (فؤاد أفرام البستانی، ص ۲۶۷-۲۶۹). و أبوالطيب المتنبی من الشعراء الآخرين الذين أجادوا فی رثائهم و تصوير حزنهم. إنه يرثی فی قصيدة مؤلمة جدته فيبدأ قصيدته كسائر أقرانه من الشعراء بأبيات حكمية ثم يبرز حزنه العميق الذی زعزع كيانه فجاء بأبيات تبوح عن الألم النفسی الثائر بحيث يحرم على نفسه السرور فی الحياة بعد جدته (أبو الطيب المتنبی، ص ۱۱۲۲)

و نرى أصداء هذه المضامين الرثائية الحزينة فی الشعر الكلاسيكی المعاصر، فيه الحديثُ عن الموت و الإعتبار بالراحلين و زوال الدنيا، و فيه التأوه و الحسرة على الفقيد،و فيه تعدد مناقب المرثی. كما يستطرد الشاعر أحياناً من خلال الرثاء إلى شتى الأغراض السياسية و الإجتماعية.(حنّا الفاخوری،ص۹۵۳ ـ ۹۸۰)

أما الذی يلفت الإنتباه فی هذه الأشعار فهو أن الحزن فی أكثرها يصدر عن إحساس صادق بحيث لا يجعلها شعراً عاطفياً إذ يبدو أن الحزن لا ينبع فيها عن عاطفة عميقة ممتزجة بذات الشاعر كما أنها قدتخلو من تصوير فنی خاص فی التعبير عن الحزن، فتعابير الشاعر معتمدة على ما جرّبه و أحسّه فی حياته. لكن ما نقرأه فی أشعار الرومانسيين عند الحديث عن

Archive of SID
www.SID.ir

تجربةٍ حزينةٍ فهو يختلف تماماً عن تلك الأشعار الرثائية المحزنة قديماً أو معاصراً . هـذا خليـل مطران يتحدث فى قصيدة «المساء» عن نفسه و هو فى أوج الحزن و الألم :

مُتفـــــردٌ بـــصَبابتـى، مُـــتفـــــردٌ ... بكآبـتـى، مُتفـــردٌ بـعـــنائى
شاكٍ إلى البَـحرِ إضطرابَ خَواطـــرى ... فيُجيبـــُنى برياحِـــه الهَـوجاءِ
ثاوٍ على صـخرٍ أصـمَّ و ليـــتَ لـــى ... قلباً كهذى الصَـــخـرةِ الصمّاءِ
ينتابُـها مـوجٌ كموجِ مَـكارهـــــى ... و يـفتُّها كالسُـقمِ فى أعضـائى
و البـحرُ خـفّاقُ الـجوانبِ ضائـقٌ ... كمداً كصدرى ساعةَ الإمـــساءِ
و الشمسُ فـــى شفقٍ يسيلُ نـضارُه ... فوقَ العقيقِ على ذُرىً سـوداء
مـرّت خلالَ غـــمامتينِ تَـــــحدُّراً ... و تَقطـَّرت كالدَّمـعةِ الحمـــراءِ
فكأنَّ آخـرَ دَمعـــــةٍ لِلكـــونِ قـد ... مُزجَـت بآخرِ أدمعى لِـرثائى
و كأنَّنـــى آنســـتُ يومـــى زائـلاً ... فرأيتُ فى المرآةِ كيفَ مَسائى

(خليل مطران، ص ۱۴۴)

إن الألفاظ التى تتألف منها الأبيات (الكآبة، العناء، إضطراب الخواطر، المكـاره، الإمـساء، الشفق، الدمعة و الرثاء) ترسم صورة من نفس الشاعر المريضة يستولى عليها الحزن بقوة لما له من صدق الإحساس و عمقه. إنه فى تصوير حزنه لايعمل كآلة التصوير ليصف حاله و حسب بل يدخل خياله ساحةَ إبداعه الشعرى و يمتزج مطران بفضل خياله بالطبيعـة لـيرى نفـسه فى مرآة تلك الطبيعة فكأنها قطعة من نفس الشاعر أو الشاعر جزء من أجزاء الطبيعة أو بتعـبير آخر إن الشاعر حالٌّ فى الطبيعة و الطبيعة حالّة فيه و هذا مـا يـسمّى عنـد الأدبـاء بـالحلول الشعرى. فخيال مطران يجعل رياح البحر الهوجاء لتـرد عليـه كإنـسان (ظـاهرة التـشخيص) لإضطراب خواطره، كما يجعل البحر و هو خفاق الجوانب ضائق كمـداً مثـل صـدر الـشاعر ساعة الإمساء، إنه يرى الشمس عند غروبها بين السحاب كأنها آخـر دمعـة للكـون تمتـزج بدموع الشاعر لترثيه. و من كل هذا تتكون المرآة التى يرى فيها الشاعر نفسه أو تحل الطبيعـة فى الشاعر كما يحل فيها أو يذوبان فى بعضهما البعض.

Archive of SID
www.SID.ir

١. بدر شاکر السیاب:

حیاة السیاب هی السند الرئیس فی الحکم علی شیوع ظاهرة الحزن فی شعره، فالقساوة و المعاناة اللتان إصطحبتاه فی الثمانی و الثلاثین من عمره، جعلتا شعره یفیض ألماً و حزناً.

العامل الأول ـ السیاب الذی نشأ محروماً من حنان الأم حین یجد صورتها فی صورة جدته و یأخذ یتسلی فی أحضانها ، یفاجَأ بفقدها فی صیف سنة ١٩٤٢. و کان لتلك الحادثة أثرها البعید فی نفسیة بدر، لنسمع إلیه یقول: «أفیرضی الزمان العاتی. أیرضی القضاء أن تموت جدتی أواخر هذا الصیف، فحرمت بذلك آخر قلب یخفق بحبی و یحنو علیَّ ، أنا أشقی من ضمّت الأرض» (إحسان عباس، ص٣٤). هذه الآهات و اللعنات علی الدهر و القضاء لیست إلا معبرة عن تأثر السیاب العظیم تجاه فجیعته إذ الدهر قد أوقعه کأسیر فی أیدی الأحزان و منع الشاعر الشاب من الحصول علی السکون فی ظل الحنو الأمومی و خَیَّب آماله و آب بسعادته إلی الفناء:

أسلَمتنی أیدی القضا لِلشجونِ إذ قضی مَن یَرُدُّنی لِسکونی
ورَمَی سهمَهُ بقیةَ آمالی فَخَرَّت صیعةً من عُیونی

(مجموعة«البواکیر»، قصیدة«رثاء جدتی»، ص ٤٠٨)

هذا الرثاء الحزین الذی یبدیه بدر فی فقدان جدته یصور للقارئ مدی أثر الحزن علی نفسه، فجدته تمثل له ما فقده فی حیاته الطفولیة من الآمال فی کنف الأم و لم ینلها ، لذا یبدأ خیاله فی تصویر الجنایة التی إرتکبها القضاء فی حقه و یشبهه إلی السهم الذی أصاب مناه فانهارت کأنه لیس لبدر بعد جدته أمل فی الحیاة. و یصل تأثیر هذا الحزن العارض علی بدر إلی حَدٍّ یخاطب الشاعر القبر کأنه یسمعه و یسترحم منه لجدته لیکون رحیماً علیها کما ربّته بلین و رأفة عندما ماتت أمهُ فتیتَّمَ :

أیُّها القبرُ کُن علیها رحیماً مثلَما ربَّت الیَتامَی بلِین

(المصدر نفسه، ص ٤٠٨)

Archive of SID

www.SID.ir

العامل الثانیـ الإخفاق فی الحب هو العامل الثانی فی إثارة الحزن الرومانسی عند بدر شاکر السیاب. إنه ما إن یقع قلبه فی حب أحدٍ حتی یواجه الإخفاق فیه فتأتی أشعاره الغزلیة مغلفة بالألم و الحزن.

یصف السیاب نفسه فی البحث عن الحب متشرداً و لذلک عندما یتعرف إلی هالة الراعیه و یخفق قلبه لها یصور حالته لها بألفاظ موجعة و مؤلمة قائلاً :

لِأجلِكَ أطوی الرُّبی شارداً ... أُردِّدُ أنغامی الضائِعَة

وأسكُبُ فتی الناي قلبی الكئیبَ ... فتَغمُرُه النشوةُ الخادعَة

(إحسان عباس، ص۴۲)

إن قلبه الكئیب بعد أن یهدأ بالتعرف إلی هالة و یعود بدر فی عطلة الشتاء سنة ۱۹۳۴ من دارالمعلمین إلی جیكور لیجدد لقائه بها و لا یراها، فیسیطر الحزن علیه مرة أخری و یقول :

سَعَفَ النخیلِ علی المَمَرِّ تَهدَّلَ ... و أحجَبَ بِظِلِّك ما یَراه المُجتلی

مَن كُنتُ أحذَرُ أن تُحَجِّبَ طیفَها ... عَن ناظری نَزَلَت بِأبعدِ مَنزِلِ

سِیّانِ عندی الیومَ قَفرٌ مُوحِشٌ ... و ظِلالُ رَوضٍ مُستطابِ المَنهلِ

(مجموعة «البواكیر»، قصیدة «تنهدات»، ص ۴۱۸)

إن التصویر الذی یرسمه السیاب الحزین فی الأبیات المذكورة أعلاه یدل علی أنه كان یتوقع الفشل فی الحب من قبل ، فتهدُّل أو تعلُّق سعف النخیل الذی إعترض أمام عینی بدر و هو بانتظار هالة یرسم عدم إتیان هالة كما أن لفظةَ أحذر فی البیت الثانی توحی أن بدر كان یتوقع عدم إقبالها. إن الفراق عن هالة الراعیة یسلِّم السیاب إلی الألم لننظر إلیه كیف یرسم هذا الألم و الحزن المستولی علیه: لَقَد حدَّثُونی بموتِ القطیعِ فشُدَّت علی القلبِ كفُّ الألم

خیال السیاب یخلق للألم علی سبیل الاستعارة التخییلیة یداً (كفاً) تعصر وجوده حتی الإشراف علی الموت. و هذا الألم المسیطر علیه یجعله لیلجأ إلی أسلوب التكرار لتخفیف حزنه و من أجل وزنه الشعری و یأمل فی لقاء الحبیبة:

Archive of SID

www.SID.ir

أراهـــا غـــداً، هـــل أراهـــا غـــداً و أنســـــی النَـــوی أم یَـــــحُولُ الـــرَّدی

(دیوان «قیثارة الریح»، قصیدة «أراها غداً»، ص ۴۶۴)

إن السیاب حین یعود فی قصیدة «ذکریات الریف» إلی الماضی فی أیامه الحسان حیث کـان یُسقَی قلبه من الحب، فمرة یتذکر إخفاقه فی الحب و یشبه قلبه إلی جسرٍ یعـبر علیـه الحـزن فیئن و یشکو تحت أقدام العابرین :

و تلـك الحـقولُ الزهرُ تنسلُّ بینَها جَـــداولُ مـــاءٍ بـــینَ وانٍ و فاتـــــرِ

عَلَیـها جُسورٌ مِـن جذوعِ نخیلِها تَـئِنُّ و تَـشکُو تـحتَ أقدامِ عـــابـــرِ

کَذاك فؤادی یَعـبُرُ الحزنُ فَـوقَه علـی نـهرِحُبّی وارداً بَـــــعدَ صـادرِ

(مجموعة البواکیر، قصیدة«ذکریات الریف»، ص ۴۱۳)

فالشاعر فی هذه الأبیات یمتزج بالطبیعةو أجزائها فکأنّه الطبیعة أو کأنَّ الطبیعة هو الشاعر و أصبح جزءاً منها و هذا کما ذکرنا عند الحدیث عن مطران ما یسمَّی عند الأدباء بـ «الحلـول الشعری». لننظر إلی تصویر آخر للسیاب فی التعبیر عن إحساسه الحزین، فهـو فی لهفتـه إلـی لقاء الحبیبة یعانی السقم و راح الهزال یدب فی جسمه ، لذلک نراه یشبه قلبه الخافق فی لقائهـا إلی الضوء الخافق المرتعش کما یشبه جسمه السقیم النحیف إلـی الـضوء عنـدما یقـرب مـن الإنطفاء :

أشـــراعٌ یَطوی بـــارَ الظـلامِ ؟ أم سـراجٌ فـــی غُرفـــةِ المُســتـــهامِ

شاحـــبُ الـضَوءِ یرقُـبُ الشاعرَ الســـــهرانَ تبـــکیه نائباتُ الغـرامِ

خافـقٌ مثـــلُ قلبِه حیـنَ یَطغَی راعـــــشٌ مـــثل دُمعِه فـــی انسجامِ

أعـــــلیهِ لِنَجمةِ الصُبحِ وعـــدٌ بـلـقـاءٍ فبـــاتَ نـــضـــوَ سقـــامِ ؟

(مجموعة البواکیر، قصیدة «سراج»،ص ۴۰۷)

إن بدر فی تعمیم حزنه علی الطبیعة، قد یـستخدم الـصفات الدالـة علـی الحـزن فی غـیر موضعه أی «إنه یعکس الصورة الشعریة» (عبد الکریم حسن، ص ۱۲۵):

و تَنسابُ مـــثلَ الشراعِ الکئیـبِ وراءَ الـــدُّجَـــی روحُـــك الشاردة

Archive of SID

www.SID.ir

(ديوان «أزهار و أساطير»، قصيدة «ذكرى لقاء»، ص٧٣)

فالكآبة تستخدم عادة للروح و الشرود يأتى صفةً للشراع ، لكن بدر قلب الصورة و قال الشراع الكئيب و الروح الشاردة. و من المواضع الأخرى التى نلاحظ التطابق بين السياب و الطبيعة هى قصيدة «فى ليالى الخريف» :

فى ليالى الخريفِ الحزينِ/ حينَ يطغَى علىَّ الحنينُ/ كالضبابِ الثقيلِ/ فى زوايا الطريقِ/ فى زوايا الطريقِ الطويلِ

حينَ أخلُو و هذا السكونُ العميقُ/ تُوقِدُ الذكرياتُ/ بابتساماتِك الشاحباتِ/ كُلَّ أضواءِ ذاك الطَّريقِ البعيدِ حيثُ كانَ اللقاءُ/ فى سكونِ المساء

(ديوان «أزهار و أساطير»، ص ۶۴)

إن الإمتزاج الذى يسعى إليه السياب بينه و بين الطبيعة قد وصل إلى أوجها . ففى الخريف تتساقط أوراق الأشجار و السياب أيضاً تتساقط ذكرياته، إنه يراجع الذكريات فى خلوته و الزمان الذى يختاره لمراجعته هو المساء الذى يغمر السكون الطبيعة عند تلك اللحظة الزمانية. فهذه الصور الرومانسية ليست إلا محاولة من السياب للتعبير عن الخيبة فى الحب مما أدّى إلى حزنه .

و قد يلجأ السياب إلى الشكوى لإبراز حزنه، فهو يشكو إلى الليل من جور الحياة و الهوى لعله يسليه عما به و لكن يجده مثله عاشقاً أليماً باكياً :

شكوتُ إلى الليلِ جورَ الحيـ ـاةِ فارتدَّ يشكو أذاها لِيَه
فقالَ، و إنّى أسيرُ وتلك النجومُ المُضيئاتُ أغلاليَه
شكوتُ إلى الليلِ جورَ الغرامِ فأرسلَ آهاتِه الباكيَه

(مجموعة «البواكير»،قصيدة «على الرابية»، ص ٤٠٧)

هذه الشكاية التى توجهه السياب إلى الليل محاولة منه للخلاص مما حلَّ به و الوصول إلى السكون فى الليل، إذ الليل «عالم الوحدة فيه يسود الصمت و تتلاشى الحركة فيستسلم

Archive of SID

www.SID.ir

الرومانسی إلی الهدوء الذی ینشده ... و یوحی بالإطلاق و التحرر» (فایز ترحینی،ص، ١١٤). و لذلک یرجو السیاب لأن یبرد سکن اللیل حرقته و ینسیه ألمه :

لیــتَ اللیالیَ تُنــسی قلــبیَ الألما النــجمُ یُــنــبِئُها عنــی بمــا عَلِــما

(مجموعة «البواکیر»، قصیدة «یا لیل»، ص ٤١٩)

و یبدو أن هذا التأکید فی نسیان الألم من جانب الشاعر هو الـذی یجعلـه لأن یـأتی بالـصورة منقلباً :

لعَینیکِ یا لیلُ سـرٌّ لا تبـوحُ بهِ أُغمضـتَ عـنه عـیونَ الناسِ فانکَتَما

إلا عُیُـونی ما أُغمضتَ ساهدَها فَبتنَ یرقُبنَ مـنک النوءَ و الظُلَـما

(المصدر نفسه، ص ٤١٩)

إنه هو السیاب الذی یحمل سراً (أی ألم الفراق) بین جنبیه ، لکنه یقلّب الحالة فی نوع من التعویض حین یسأل اللیل عن سره .

قد یأتی الحزن الذاتی الذی تعـرَّضَ لـه الـسیاب مقدمـة للتعـبیر عـن الحـزن الجمـاعی (الإجتماعی). و ذلک ما نجده فی قصیدة «أنشودة المطر» (دیوان «أنشودة المطـر»، ص٢٥٣). إن المقطع الأول بألفاظه و صوره یعبر عن الفرح بینما المقطع الثـانی (البیـت الـسابع إلـی البیـت الثالث عشر) یعبر عن الحزن. فالألفاظ (یغرقان ، الضباب، الأسـی، المـساء، المـوت، الظـلام، البکاء) یشع منها الحزن الذی تترکه عینا المخاطبة (الحبیبة) کما یجعل المقطع فی التنـاقض مـع المقطع الأوّل. ثم حین یأتی ضمیر المتکلم (فتستفیق، ملء روحـی رعـشة البکـاء) لأول مـرّة، یسم کلا المقطعین معبِّرَیْنِ عن الأثر الذاتی العمیق للعینین لدی الـشاعر. و المقطـع الثالـث هـو الذی یتحول فیه الحزن الفردی إلی الحزن الجماعی. هذا المقطع بأجزائه الثلاثة یأتی فی تواصل مع المقطعین الأول و الثانی . الجزء الأول (من البیت الرابع عشر إلی الواحد و العـشرین) یمثـل الفرح من جرّاء أثر نزول المطر علی الأرض فالأطفال یلعبون فی بساتین الکروم ضـاحکین و العصافیر یشدون علی الأشجار (المصدر السابق ، ص ٢٥٤). و الجـزء الثـانی (بـداءً بالبیـت الثانی و العشرین و إنتهاءً بالسادس و الثلاثین) یمثل الحزن فی إطارین الفـردی و الإجتمـاعی

www.SID.ir

حیث یأتی المطر فی مشهد قاتم و کئیب و یهذی الطفل فی البحث عن أمّه و یلعن الصیاد الفاشل فی صیده القضاء و القدر (المصدر نفسه، ص۲۵۴). فهاتان الصورتان اللتان یقدمهما السیاب، یحتمل فیهما أن یرسم تجربته الفردیة فی الحرمان و العجز کما یحتمل أن یرسم صورة أفراد المجتمع فی الحرمان عن حقهم المشروع. و الجزء الثالث (من البیت السابع و العشرین إلی البیت الثانی و الخمسین) (المصدر نفسه، ص ۲۵۴– ۲۵۵) أیضاً، بالأسئلة التی یوجهها السیاب نحو المخاطبة:

أتعلمینَ أیَّ حزنٍ یَبعَثُ المطر ؟
و کَیفَ تَنشِجُ المزاریبُ إذا انهَمَر ؟
وکَیفَ یَشعُرُ الوحیدُ فیه بِالضیاع؟

یؤکد الحزن لدیه بما یبعث المطر فیه من الذکریات و الرغبات الحزینة. فالمطر هناك یلعب دوراً عکسیاً إذ إنه یجب أن یبعث الفرح بما فیه من الخصب و العطاء، لکنه یبعث هنا الألم و الحزن، من جهة أخری تتخذ رؤیة السیاب للمطر بعداً عاماً (إجتماعیاً) حین ینطلق مع المطر للنظر فی أوضاع العراق المثیرة للحزن، أی إنه یعطی للمطر رمزاً دالاً علی معاناة المطلق لا الفرد:

و مُقلتاكِ بی تَطیفانِ مَعَ المَطرِ/ و عَبرَ أمواجِ الخلیجِ تمسحُ البروقَ / سواحلَ العراقِ بالنجومِ و المحار

فیمکن القول أن المطر أخرج السیاب من تجربة داخلیة حزینة إلی عالم خارجی حزین (العراق) و مزج بین هذین الحزنین.

العامل الثالث ـ و معاناة تجربة الموت هی العامل الثالث الذی تقف وراء الحزن الرومانسی فی أشعار السیاب. إنه «یجعل من الإحساس بالموت باعثاً ملحاً لکم هائل من المشاعر الحزینة» (السعید الورقی، ص ۲۷۳) فی أشعاره. إن هناک عاملین أساسین یلعبان دوراً هاماً فی تفاقم الإحساس بالموت وبالتالی الحزن الذاتی لدی السیاب و هما : أولاً : الإخفاق فی الحب و الثانی : المرض.

Archive of SID

www.SID.ir

بما أن الحب یعتبر للشاعر حیاةً وحیویةً فحین یواجه بالخیبة فی تحققه یشعر بالموت و لذلک عندما یلاحق الحبیبة فی خیاله یلاحقها فی صورة من یلاحق الموت، ففی کل زاویة یراها، یری مقتله:

فی کُلِّ زاویةٍ نظرتُ رأیتُ مِن آثارِها ما خلَّفَتهُ لِمقتلِی

(مجموعة«البواکیر»، قصیدة «تنهدات»، ص ۴۱۸)

إذا ما یموت الفرح و النشاط فی حیاة السیاب إثر حبه الضائع ، و یسیطر الحزن علیه ، یعود إلی الطبیعة حیث یمنح الهدوءَ و السلامَ ،ولکن یراها و أجزائها میتاً ، فالعش صار خالیاً من العصفور و مات فیه صدی النغم الحنون و الغدیر جفَّ ماؤه و مات فیه هدیر المیاه الجاریة :

کأنَّ العُشَّ حینَ خلا و أقوَی و ماتَ به صَدَی النغمِ الحَنُونِ

غدیرٌ جَفَّ غارُبه ومائَت أغانی موجهِ المَرحِ المعینِ

(دیوان «قیثارة الریح»، قصیدة «العش المهجور» ص ۴۶۱)

و من القصائد التی تصور إحساس السیاب بالموت من أجل ضیاع الحب قصیدة «رئة تتمزق» (دیوان«أزهار و أساطیر»، ص۵۴). إن السیاب یجعل موت خاله بسبب داء السل کذریعةٍ لعرض إخفاقه فی الحب و شعوره بالموت فکأنه یتصور أنه مات :

الداءُ یثلجُ راحتی، و یُطفِیءُ الغدَ: فی خیالی/ و یشلُّ أنفاسی، و یُطلقُها کأنفاسِ الذُّبالِ تهتزُّ فی رئتینِ یرقصُ فیهما شَبَحُ الزَّوال/ مَشدُودَتینِ إلی ظَلامِ القَبرِ بالدمِ و السعال

خیال السیاب فی هذه الأبیات یبدأ و یصور له أنه مَرِضَ بسبب ضیاع الحبیبة و الحب ، فَمَرَضُ الحُبِّ قد أقضّ مضجعه و لا یشعر بالراحة و جعل غده و أیامه المستقبلة قاتماً إذ سیسوقه إلی قاع القبر حیث تسوده الظلمة. و هذا الموت یجعله لأن یلتاع حین یعلم أنه داهمه و هو فی عنفوان الشباب، الزمن الذی یجب أن یتلذذ بالحب:

واحسرتا !؟ أکذا أموتُ ؟ کما یجفُّ نَدَی الصَّباحِ ؟/ ماکاد یلمعُ بینَ أفوافِ الزنابقِ و الأقاحی فَتَضوعُ أنفاسُ الربیعِ تهزُّ أفیاءَ الدوالی حتی تلاشَی فی الهواءِ .. کأنَّه خفقُ الجناح!

Archive of SID

www.SID.ir

تعبیر (ندی الصباح) صورة عن السیاب المیت عند ریعان شبابه ، فالندی ظاهرة طبیعیة تظهر فی بدایة الیوم (الصباح) علی الأزهار و الأعشاب، لکنه لا یلبث أن یتلاشی و یمحو. فالسیاب حاله کالندی فی ریعان الشباب (الصباح) و قد أشرف علی الموت من أجل مرض الحب و من أجل أن یتمتع السیاب من حبه فی أیامه الزاهرة یخاطب الموت و یلتمسه ألایصیبه لیحظی بإبتسامة الحبیبة:

یاموتُ.. یا ربَّ المخاوفِ و الدیامیسِ الضریره/ الیومَ تأتی ؟! مَنْ دَعاکَ ؟ و مَن أرادَک أن تزورَه؟ أنا ما دَعَوتُکَ أیُّها القاسی فَتَحرمَنی هَواها / دَعنی أعیشُ علی إبتسامتِها و إن کانت قَصیرة

أما الموقف الثانی الذی یرسم الموت أمام وجه السیاب فهو المرض . إنه حینما یشتد به المرض فی أواخر عمره، یتجسد الموت أمام عینیه فیتجه إلی الإنکفاء علی الذات و إلی التعبیر الذاتی عَمّا حل به ، فهو یصف آلامه و یشکو العالم عذابه مما یصبغ أشعاره بمسحة الحزن. إن مرضه المخیم علیه یقود السیاب إلی أن یری کل شیء فی الوجود یدعوه إلی الموت:

و لاشیءَ إلا إلی الموتِ یَدعُو و یصرخُ، فیما یزولُ / خریفٌ، شتاءٌ، أصیلٌ، أفول

(دیوان «منزل الأقنان»، قصیدة «نداء الموت»،ص ۱۴۴)

الألفاظ التی ینتخبها السیاب فی التعبیر عن إحساسه ،کلها بما فیها من الظلام و الزوال ترسم الحزن الشدید من جراء غلبة الموت علیه. و هذه التعابیر کثیراً ما نواجهها حینما یرسم السیاب بوضوحٍ حزنه و إشرافه علی الموت :

إذا نَطقَ الطبیبُ فاسکُتُوا الحّرافَ و الفوّالَ/ رنینُ المعولِ الحجریِّ یزحفُ نحوَ أطرافی

(دیوان «شناشیل إبنة الجلبی»، قصیدة «المعول الحجری»، ص ۳٦۰)

کلام الطبیب و صوته شبیه برنین المعول حین یصطدم بالحجر، هذا التشبیه یخلق جواً من الفزع و الکآبة و هو جو یلائم روح السیاب الحزینة. یبدو السیاب فی تحیره أمام نهایه الحیاة (الموت) لایزال یبحث عن بارقة الأمل، تمنح له حیاة ینعم بها دون قلق و إضطراب، لذلک یسعی السیاب أن یسلی نفسه و یصارع الموت و یصمد أمامه، فنراه فی هذا الصراع و الصمود

www.SID.ir

و العزاء «یستلهم معارک الأبطال ضد الموت» (عبدالکریم حسن، ص ٢٦١) أو بعبارة أخری إنه یستعین الأسطورة فی صراع المرض و الموت:

بالعضلِ المفتولِ و السواعدِ المجدولةِ/ هرقلُ صارَعَ الرَّدَی فی غاره المُحجَّب/ بظُلمةٍ مِن طُحلبٍ و قامَ تُموز بجُرحٍ فاغرٍ مُخَضَّبٍ/ یَصُکُّ (موت) صکّةً مُحجَّباً ذُیولَه/ و خُطوَه الجلیدَ بالشقیقِ و الزنابقِ

(دیوان «منزل الأقنان»، قصیدة «سفر أیوب»،ص ١٥٩)

فالسیاب لایستحضر صورة «هرقل» و «تموز» إلا فی محاولة منه لإقناع نفسه بالصمود و صراع المرض. و فی هذا الصراع و الصمود یبدأ خیاله فی خلق صور شعریة . إنه یتخذ الشعر کسلاحٍ للذهاب إلی محاربة الموت فأیام السیاب تسیر نحو الموت، لکنه یشهر سیف الشعر أمامه لیردّه حتی یعیش حیاً. و فی هذا الصراع لیس وحیداً بل الطبیعة بما فیها من الوحوش و الحیاة تقاتل الردی. لکن هذا السلاح لیس لیظفر ابداً:

سُلِلتُ مِن قصائدی/ سیفاً کأنَّ البرقَ حدّادٌ رَمی أُصولَه/ و صَبَّ مقبضاً له و شَفرَه بالشِّعرِ، بالمبرقِ، بالمجلجلِ المدویِّ/ رمیتُ وجهَهُ یهوی نحوی/ کأنَّه الستارُ فی روایةٍ هزیلة رمیتُ وجهَ الموتِ ألفَ مره/ إذا أطلَّ وجهُهُ البغیضُ/ کأنَّه السیرینُ، یسعَی جسمی المریض[1] نحوَ ذراعیهِ بلا تَردُّدٍ / فأنتَضی مِن سیفی المُجرَّدِ / و یقطرُ الشعرُ و لایغیضُ/ لأنی مریض أودّعُ الحیاةَ أو أشُدُّ بالحیاةِ/ بخیطِه الموروثِ عن أموات/ لم یدفع الشعرُ منایاهم وقد/ جاءت إلیهم غیله!

(المصدر نفسه، ص ١٥٩–١٦٠)

إن السیاب فی بحثه عن سلاح یحارب به الموت، سلّ من قصائده سیفاً صنعه البرق و جعل له مقبضاً و شفرة. فهو یجعل هنا البرق مقابلاً لظلمة الموت. یأخذ الموت صورتین: الستار و السیرین، فیرمی السیاب سیفه أی شعره نحوهما، و فی الصورة الثانیة یبدو جسد السیاب المریض یسعی بلا تردد نحو ذراعیه، إنه یواصل نضاله بالموت، فیجرد سیفه مرة أخری ، لکن

١- جاء فی هامش الدیوان فی شرح کلمة «السیرین» : السیرین، کما فی الاوذیسیة، حوریة بحر تغنی فتجذب إلیها من یسمعها .

Archive of SID
www.SID.ir

شعره یقطر و لایغیض، و هکذا یستمر النضال حتی یصبح الشعر خیطاً- لاسیفاً- یحاول أن یشده بالحیاة، و هذا یعنی أن السیاب قد فشل .

إنّه لایجد مفراً لیهرب من الموت، فالموت قد أنشب أظفاره فی جسده لایستطیع التخلص منه، هذا هوالسیاب علی سریر المستشفی یصور إشرافه علی الموت:

کمستوحدٍ أعزلَ فی الشتاءِ/ و قد أوغَلَ اللیلُ فی نصفِه/ أفاقَ فأوقَظَ عینَ الضیاءِ/ و قد خافَ من حقنِه

أفاقَ علی ضربةٍ فی الجدارِ / هو الموتُ جاءَ

فیهاتَ، هیهاتَ، ما لی فرار !

(دیوان«إقبال و شناشیل أبنة الجلبی»،قصیدة «فی المستشفی»، ص ۳۴۸-۳۴۹)

تصویر المستوحد الأعزل فی الشتاء و اللیل مسیطرٌ علیه، هو صورة شدة وطأة الموت علی السیاب المریض الذی یصرخ مضطراً حزیناً: ما لی من فرار!

أخیراً، یندرج إستسلام السیاب للموت فی کثیر من المواقع بصور العودة إلی الماضی (الطفولة، الأم و القریة) . فحینما یخیم الموت علی الشاعر و یدنو منه، فجأة یشعر السیاب بحاجة إلی عطف الأم لتستقبله عند الموت إستقبالاً حمیماً و تسحب علیه ید الحنان کما کانت تحنو علیه عند ولادته و طفولته:

و لبستُ ثیابی فی الوهمِ/ و سریتُ: ستَلقانی أُمّیفی تلک المقبرةِ الثَّکلیستقولُ: أتقتحمُ اللیلا من دونِ رفیقٍ؟/ جوعانُ ؟ أتأکلُ من زادی

***

ألاترمی/ أثوابَک؟ و البَس مِن کَفَنی/ لَم یبلِ علی مرِّ الزَّمَنِ/ عزریلُ الحائکُ، إذ یبلی

یرفُوهُ. تعالَ و نَم عندی/ أعددتُ فراشاً فی لحدی

***

سآخذُ دربی فی الوهمِ/ و أسیرُ فتلقانی أمّی

www.SID.ir

(المصدر نفسه، قصیدة «فی اللیل»، ص ۳۱۸-۳۱۹)

کما نری، تنهض صورة الأم فی لحظات موته فی لوحة ملیئة بالحنان، إنها ستخفف آلامه و ستطعمه من طعامها و تکسوه ثیابها و تنیمه إلی جانبها.

العامل الرابعـ و الغربة هی العاملُ الرابع فی صدور أشعار السیاب عن إحساس رومانسی حزین. أول غربة مکانیة أحس بها السیاب کان فی البصرة فی المرحلة الثانویة حیث نظم قصیدة یحن فیها إلی جیکور و یبدو أنه کان یذهب للفرار من هذا الإحساس برفقة صدیقه محمد علی إسماعیل إلی أبی الخصیب، فیجد مرّة أن أزهار الدفلی ذبلت و یبست (إحسان عباس، ص۲۹) فنظم قصیدةً به عنوان «ذبول أزهار الدفلی»(دیوان «قیثارة الریح»، ص۴۹۵) قائلاً:

لَذَعَ الأوامُ أزاهرَ الدفلی فذَوَت کما یذوی سنا المُقَلِ

یبدو أن أزاهر الدفلی هنا هو السیاب نفسه الذی کان نشیطاً و مسروراً حین وجوده فی جیکور، لکنه الآن فی الغربة و أحاط به الحزن و حوّله إلی أزاهر الدفلی الذابلة التی کانت تزین النهر و الطبیعة.

عندما یهرب السیاب إثر النشاطات السیاسیة إلی الکویت و إیران و تشتد معاناة الغربة المکانیة علیه یبدأ فی تصویر غربته بأنغام حزینة. إنه یصور فی قصیده «غریب علی الخلیج» (دیوان «أنشودة المطر»، ص۱۸۱) نفسه الشاردة التی ذاقت ذل الغربة و وحشة الروح و جلس علی شاطئ البحر حزیناً یتمنی العودة إلی العراق :

و علی الرمال، علی الخلیجِ/ جَلَسَ الغریبُ، یسرحُ البَصرَ المحیَّرَ فی الخلیجِ / و یهدُّ أعمدةَ الضیاءِ بما یُصعِّدُ من نشیج

إن السیاب الغریب المتحیر الجالس علی الرمال فی شاطئ الخلیج یبکی و یرسل الآهات بحیث یبدد بکاءه و نشیجه النورَ و الضیاء فیظلم الوجود أمام عینیه و لذلک یخیل لنفسه الغربیة الحزینة أن کل شیء فی الوجود، نفس الشاعر، الریح، الموج و الأسطوانة علی الحاکی، کله یصرخ من عمق الوجود: «عراق ... عراق... عراق» :

www.SID.ir

صوتٌ تَفجَّرَ فی قرارةِ نفسی الثَّکلی: عراق/ کالمَدِّ یصعدُ، کالسحابةِ، کالدموعِ إلی العیونِ
الریحُ تصرخُ بی: عراق/ والموجُ یعولُ بی: عراق، عراق، لیس سوی عراق
البحرُ أوسعُ ما یکونُ و أنت أبعد ما تکونُ/ و البحرُ دونکَ یا عراق
بالأمسِ حینَ مررتُ بالمقهی، سمعتُک یا عراق/ و کنتَ دورةَ أسطوانه

۲. نازک الملائکة:

تتسم بدایة مسیرة نازک الملائکة الشعریة بالحزن و الکآبة و کان وراء هذا الإحساس و الشعور عدة عوامل جعلتها تنطوی علی ذات یغمرها الضیاع و القلق و الشک و الحزن.

أولاً : یتضح من الأقوال التی تجری علی لسان الشاعرة عن إیمانها فی أول شبابها، أن إیمانها و إعتقادها یشوبه الشک مما یجرها إلی حدود الإلحاد : «إننی لم أکن متدینة فی فترات حیاتی کلها لا بل إننی مررت بفترة الإلحاد و تشکک فظیع ما بین ۱۹۴۸ و ۱۹۵۵» (عبد الرضا علی، ص ۳۸) فلا شک أن هذه العقیدة و الضعف فی الإیمان تقودها إلی التشاؤم و الرفض حقیقة الموت: «و کان من مشاعری إذ ذاک التشأوم و الخوف من الموت» (نازک الملائکة، ص۹). هذه المشاعر تجعلها لأن تشعر بـ «أن الحیاة کلها ألم و إبهام و تعقید» (المصدر نفسه، ص۶) و تصبغ نفسیتها بالحزن و تثمر قصیدة مطولة عنوانها «مأساة الحیاة» التی تلونت علی حد قولها باتجاهها الرومانسی (المصدر نفسه، ص ۹). هذه النظرة المتشائمة إلی الحیاة تدفع نازک لأن تصورها غارقة فی الظلام الدامس بحیث یؤدی جهودها فی الکشف عن سر الحیاة إلی العبث:

عبثاً تحلُمینَ شاعرتی ما مِن صباحٍ للیلِ هذا الوجودِ
عبثاً تسألینَ لن یکشفَ السرَّ و لن تَنعَمی بفَکِّ القیودِ

(مطولة مأساة الحیاة، ص ۲۱)

Archive of SID

www.SID.ir

هذه الخیبة فی الوصول إلی حقیقة الحیاة تزید فی ظلمتها کما تفضی إلی أن یر العمر حزیناً و أن یصبح العالم دمعاً و حزناً أو بعبارة أدق إن الإنسان لم یهبط هذا العالم إلا لیقتات الحزن و یشرب الدمع:

لیسَ حَولی إلا دیاجیرُ کونٍ لیسَ یفنَی بکاؤُه و أساهُ

(المصدر نفسه،قصیدة «البحث عن السعادة»، ص۷۱) إثر هذا القصور فی معرفة أسرار الحیاة تقع نازک فریسة الحیرة و القلق و تورد أسئلة بحثاً عن المعرفة و الیقین و تخلصاً للتناقض و التعارض أو الثنائیة و حالة التردد بین الشک و الیقین، التی وقعت فیها و هی فی هذا الأمر تظهر کالرومانسی الذی تصبح نفسه و عقله أحیاناً مجالاً رحیباً للصراع بین القوی و الأفکار المتعارضة (محمد مصطفی هدارة، ص ۲۸) کما أنها یبدو تستلهم الشاعر إیلیا أباماضی فی قصیدته «الطلاسم» فی هذا المجال :

هکذا جئتُ لِلحیاةِ و ما أدْ ری إلی أین سَوفَ تمضی الحیاةُ

(مطولة مأساة الحیاة، ص ۲۸)

***

لَستُ أدری ما غایتی فی مَسیری آه لَو یَنجلی لِعینی سرُّ

(مطولة«أغنیة للإنسان۲»، ص ۳۶۳)

هاتان الکلمتان (لست أدری) اللتان یرددها نازک لیس إلا تعبیراً عن عدم الوصول إلی الإجابة ثم الإطمینان کما أنه تصور شعورها الحزین بشکل آخر. و یشیع هذا الحزن الرومانسی المخیم علیها فی دیوانها «عاشقة اللیل» حیث ترسم صورة الحیاة بلون أسود و شکل موحش و یسودها جو الکآبة، و لیس عامل وراء هذا التصویر المظلم الموحش للحیاة إلا الأثر النفسی الذی ترکه الحزن علیها :

رأیتُ الحیاةَ کهذا المساء ظَلاماً و وحشةُ جوٍّ کئیب

(دیوان عاشقة اللیل، قصیدة «خواطر مسائیة»، ص ۵۶۸)

عَبثاً فالحیاةُ سنَّتُها الحُزنُ و حکمُ الآهاتِ و الدمعُ جار

Archive of SID

www.SID.ir

(المصدر نفسه، قصيدة «الفيضان»، ص ۶۴۸)

إن نازک الغارقة فی الحزن قد تجد الطبيعة مرآةً لنفسه الكئيبة، و لذلک حين تصورها بريشتها الشعرية ترسم صوراً موحية بالحزن العميق :

و مياهُ النهرِ تجری فی شُحوبٍ تحتَ أكداسِ الغيومِ الجاثماتِ

و صَدى طاحُونةِ القمحِ الغريبِ يُكئِبُ النفسَ بأشجَى النَغَماتِ

(المصدر نفسه، قصيدة «الغروب»، ص۵۴۵)

جلست نازک عند الغروب فی جانب النهر، و الحزن المحرق يمشی فی كيانها و لذلک حين تلقی نظرة إلى أطرافها تراها محزونة فمياه النهر التی تجب أن تثير بخريرها السرور و الهدوء، تجری شاحبة اللون و الغيوم السوداء تجثم عليها، كما أن الرحى تتألم وتئن و تكئب النفس بأنغامها الموجعة.

ثانياً: إن الموت يشكل مأساة الحياة الكبرى عند نازک و كان هاجسها الذی رافقها منذ صباها إلى سن متأخرة (ديوان نازک الملائكة، مقدمة «مأساة الحياة و أغنية للإنسان» ص۷)، متأثرة فی إحساسها تجاهه بآراء شوبنهاور الفيلسوف الآلمانی المتشائم (المصدر نفسه، ص ۶-۷). لذلک نری أصداء الموت تتردد فی كثير من قصائدها من مثل «عيون الأموات» (المصدر نفسه،ص۴۹)، «أنشودة الأموات» (المصدر نفسه، ص ۱۸۸)، «مرثية للإنسان» (المصدر نفسه، ص۱۹۵)، «ثلاث مراث لأمی» (ديوان قرارة الموجة، ص ۳۱۱) وغيرها من القصائد التی تفصح عن شيوع ظاهرة الحزن عند الشاعرة.

إن نظرة نازک المتشائمة إلى الحياة تدفعها إلى أن ترى أنّ الإنسان لايعيش منذ ميلاده إلا ميتا إذ حياته كلها شقاء و فی هذه الحالة لافرق بين بدايته و نهايته المفضية إلى الموت. و الذی هو نصيبه طيلة هذه الحياة التعسة هو الحزن العميق :

ما أفظعَ المبدأ و المتنتهی ما أعمقَ الحُزنَ الذی نَحملُ

(ديوان عاشقة الليل، قصيدة «المقبرة الغريقة»، ص۵۲۹)

Archive of SID

www.SID.ir

و علی هذا الأساس تصور أن الموت متواجد فی کل مکان و زمان وحتی فی الأشیاء التی من شأنها إثارة البهجة و السرور کنغمات الطیور :

و معانی الفَناءِ ألمحُها حَو لی فی کُلِّ ماتراه عُیُونی
فی دَوِیِّ الریاحِ فی نَغَمِ الطَیـ ـرِ و فی ظُلمةِ المساءِ الحزینِ

(مطولة مأساة الحیاة، قصیدة «أحزان الشباب»، ص۲۱۱)

هذه المعانی التی تأتی بها نازک فهی تنبع من إحساس عمیق حزین قد سببتها حادثة الموت لذلک حین تری الحیاة مطویة علی الفناء و تتجه بمصیر الإنسان نحو الموت فتستنج أن الحیاة لاجدوی فیها :

کُلُّ مافی الحیاةِ یُنهی إلی القبـ ـرِ فَما مجدُها ؟ و ما جَدواها ؟

(دیوان عاشقة اللیل، قصیدة «مرثیة فی مقبرة ریفیة»، ص۶۴۷)

وبالتالی تتخذ هذه الحیاة الدنیة صورة قاسیة حینما تتراءی لنازک مثل لون عینی المیت أو تتصور لها کقاتل یقرب لیقتل :

قالُوا الحیاةُ/ هی لونُ عینی میِّت/ هی وقعُ خطوِ القاتلِ المتلفّتِ

(المصدر نفسه، قصیدة «خرافات»، ص ۸۴)

خیال نازک یبدأ فی العمل فیصور الحیاة قاتلاً یحمل فی طیه الموت و یحاول إهلاک کل شئ فی هذا الوجود.

والحادث المهم الذی أحدثه الموت و الحزن الناتج عنه فی نفس نازک ثم فی حیاتها الشعریة هو الذی دفعها إلی تغییر الشکل الشعری للقصیدة متمثلاً فی قصیدة «الکولیرا» (المصدر السابق،ص ۱۳۸). إنه حین أصبح الموت یجتاح مصر بسبب وباء الکولیرا و صار عدد الموتی یرتفع یوماً بعد آخر من ۳۰۰ میت حتی ۱۰۰۰ میت، فلم یعد الشکل الشعری العمودی تروی ظمأ نازک فی التعبیر عن حزنها تجاه ذاک الکم الهائل من الأموات . لکن الموت فجّر جدران العمود الشعری و جاء بشکل إیقاعی جدید، کأن هذا الشعر الحر یفسح بالأشطر غیر

Archive of SID
www.SID.ir

المتساوية الطول، المجال أكثر من الشعر القديم فی التعبير عن مأساة الكوليرا : القصيدة هی رومانسية المنحی فی التعبير عن حزن الشاعرة الفردی خاصة حين تبدأها بالمطلع الجبرانی الشهير[۱] سكن الليل»:

سَكَنَ الليلُ/ أُصغِ إلی وقعِ صَدَی الأناتِ/ فی عُمقِ الظلمةِ تحتَ الصمتِ علی الأمواتِ
صرخاتٌ تَعلُو تَضطربُ/ حزنٌ يتدفَّقُ يلتهبُ

إن اختيار نازک للمشهد الزمانی (الليل) ليس صدفة إذ الليل المظلم يغمره السكوت فيمكن فيه الإستماع علی الأنات و الآهات التی سببها الموت. كما أن هذا المشهد الزمانی المظلم يوحی الحزن و الألم . يبدو أن نازک حين تصور غاية حزن البشرية من جراء الموت الذی يقودهم إلی الشكوی يبدو أنها تقصد مثل السياب[۲] لأن تخرج من دائرة الحزن الفردی إلی الحزن الجماعی :

تَشكُو البشريةُ تَشكُو مايَرتكبُ الموت
(المصدر نفسه، ص۱٤۰)

الأشعار التی نظمتها نازک عند فقدان أمها ترسم للقارئ رومانسية الحزن بكاملها. كان هذا الحزن قد فعل فعله فی أعماق نازک منذ أن مرضت والدتها مما جعلها أن تخاف من شیء رهيب سيقع و جرّها إلی أن تحلم ـ قبل سفرها إلی لندن لعلاج الأم بأسبوع ـ بأنها تسير فی شوارع لندن و تحاول شراء تابوت ملون و تبحث و تبحث و تبحث فی لهفة و رعب فلا تجد

۱- يبدأ جبران خليل جبران قصيدتيه « أغنية الليل» و «البحر» بالحديث عن سكون الليل، يقول فی الأولی:

سَكَنَ الليلُ، و فی ثوبِ السكونِ تَختبی الأحلام

و يقول فی الثانية :

فی سكونِ الليلِ لما تنثنی يقظةُ الإنسانِ مِن خَلفِ الحجاب
يصرخُ الغابُ : أنا العزمُ الذی أنبتتهُ الشمسُ مِن قلبِ التراب

راجع : المؤلفات الكاملة لجبران، البدائع و الطرائف، المجلد الخامس ، بيروت، دارصادر، الطبعة الرابعة ، ۱۹۹۷، ص ۱۱۷ -۱۱۸.

۲ راجع عنوان السياب فی هذه المقالة، ص ۸ـ۹.

Archive of SID
www.SID.ir

من یبیعها تابوتاً (نازک الملائکة: لمحات من سیرة حیاتی و ثقافتی، المنشورة علی الموقع الإنترنتی: www.alarabiya.net) و کانت ثمار هذا الحزن العظیم بعد وفاة الأم نظم قصیده «ثلاث مراث لامی» التی استعملت فیها أسلوباً جدیداً و ذلک حین قصدت أن تحب ألمها و تغنی له (دیوان قرارة الموجة، مقدمة قصیدة «ثلاث مراث لأمّی»، ص۳۰۹). ها هی نازک تغنی لحزنها الرقیق مجسمة إیاه فی صورة غلام صافی الشعور و تطلب أن تفسح الدروب له لیدخل إلی النفوس :

أفسَحُوا الدربَ له للقادمِ الصافی الشعورِ
للغلامِ المرهفِ السابحِ فی بحرٍ أریجِ
ذی الجبینِ الأبیضِ السارقِ أسرارَ الثلوجِ
إنَّه جاءَ إلینا عابراً خصبَ المرورِ
إنه اهدأ من ماء الغدیر
فَاحذَرُوا أن تجرَحُوهُ بالضجیجِ

(المصدر نفسه، ص ۳۱۱)

إن نازک لاتشکو من الألم الذی عرض لها و لاتلعن القدر الذی أفقدها حنان الأم بل إنها تأتی بأناشید غنائیة تقصد بها تخفیف ألمها . فخیالها یصور الحزن فی جو رومانسی کغلام «الصافی الشعور ، المرهف ذی الجبین الأبیض، هادئ یأتی خفیاً لیدخل نفسها الألیمة» . فهذه التجربة الذاتیة المحزنة التی تمتلکها نازک تبعثها لأن تعطی الصفة المعنویة (الحزن)، صفة حسیة و تخلق صورة فنیة شعریة ذات دلالة رومانسیة لتنقل إحساسها العمیق الحزین للقارئ. و ترسم نازک هذه الصورة للحزن مرة أخری فی الرثاء الثانی «مقدم الحزن» من ثلاث مراث و یصفه بأنه غلام حساس ، رقیق الخطی کئیب الجبین، ینبوع کل دمع و تستقبله بحفاوة و تمنحه الحب :

أفسِحوا الدربَ إنه جاءَ خجلا ... نَ رقیقَ الخُطی کئیبَ الجبینِ
الغلامُ الحساسُ ذو الأعینِ الغـ ... ـر قَی بتأریخِ ألفِ سرٍّ حزینِ

www.SID.ir

إنَّه مُـــطعمُ العيـــــونِ العـــميقا ... تِ و ينـــبوعُ كُلِّ دَمـعٍ سـخـينِ

***

أخـــذناهُ فی خُشُوعٍ إلـــی أعـــ ... ـــماقِ أفراحـــِنا و قَعـــرِ رُؤانـا

و مَنحناهُ كُلَّ مـا جَـــمَعَ الحـــبُّ ... مـــن اللـونِ و الـــشَّذَی لِـصبـانا

(المصدر نفسه، ص ۳۱۴-۳۱۵)

و لابد لنازک أن تُسكِنَ الحزن فی باطنه لأنه یعید لها وجه الأم و أمانیهـا و أشـواقها ممـا یبعث فیها لأن تشعر دفء الأم وحنانها ، و بذلک یبدو أن الحزن هو أصبح مبعثاً لذکری الأم فی ذاکرة نازک البنت :

إنَّ فـــیه مِـن وجـــهها و أمـــانی ... ـها و أشـــواقِهـــا بقـــیةَ دفءِ

و هـــو إحـــساسُها یعـــودُ إلینا ... مُـــرعـــشاً مِن کیاننا کُـــلَّ جُـــزءِ

(المصدر نفسه، ص ۳۱۶)

و تتمثل الأم فی المرثیة الثالثة (الزهرة السوداء) فی صورة الکنز الغالی الذی بعد أن تدفنـه نازک یتحول إلی زهرة سوداء تبکی و تنوح علیها و ترسم تأثرها بموت أمه :

کنـزُنا الغالـــی تَرَکـناهُ هُـــنا ... لحظـاتٍ ثُـمَّ أُسرَعـــنا إلیـه

والتَمـسنـاهُ وراءَ المنـــحَنـی ... و علی التَلِّ فلـــم نعثُـر علـــیه

غیرَ أنَّ الفـــجرَ حَیّ فـــی ابتسامٍ ... و أرانا فـــی مکانِ الکـــنزِ زهره

نبَتَـت سَوداءَ فـــی لونِ الـــظلامِ ... وسَقاهـــا دَمـــعُنا لیناًو نَضـــرَه

(المصدر السابق، ص ۳۱۸-۳۱۹)

و مثل هذا الحزن یستولی علی نازک حین وفاة عمتها مما یترک فی قلبها جرحاً عمیقاً و یفیض شعرها ألماً :

أبقَیـــتِ جُـــرحاً حافـــراً قلقاً ... فـــی قلبِ أحلامی و فـی شعـــری

(دیوان قرارة الموجة، «قصیدة إلی عمتی الراحلة»، ص۱۳۵)

Archive of SID

www.SID.ir

إنها فی التحرر من هذا الحزن تهرب إلی الذکریات لعلها تعزیها عما فیه و لکن أینما تلتفت تواجه صوراً وحشیةً مؤلمة من موت العمة فیزید ذلک فی وحشتها و قلقها:

تتدافعُ الذکرَی و تملأُنی أشباحُها قلقاً و أشجانا
الأمسُ مازالت کآبتُه حرَّی تُذکّرُنی بما کانا

***

أینَ ألتَفَتُّ تَصُدُّنی صورٌ وحشیةٌ و شتیتُ آلام
ذکری مِن الماضی تُحطِّمُنی و تَظلُّ تصهرُ جفنی الدامی
أوّاه کیفَ سقطتِ میتةً و أنا أعیشُ و تلک أوهامی

(المصدر نفسه، ص ۱۳، ۳۵)

إن نازک فی هذه الأبیات کما شرحنا تشخص الذکری تهجم علیها کحیوان وحشی و یترکها کمیت. و ما تزال الذکری تهجم علی ذاکرة نازک فی یقظتها و حتی فی نومها فیغمرها الحنین بحیث تصرخ فی لهفة «هل ترجعین؟»:

مازالت الذکری تضجُّ وراءَ إحساسی الدفینِ إن نمتِ ألمُها تسیرُ معی یجسّدُها الحنینُ
إن نمتِ ألمها فتصرخُ لهفتی هَل تَرجَعین هَل تَرجعین إذا حلمتُ بما مَضَی هَل تَرجَعین؟

(دیوان قرارة الموجة، قصیدة «هل ترجعین»، ص ۳۸۵-۳۸۶)

هذا التکرار الذی تورد نازک جاء یخدم الهدفین اللذین تقصدهما : ۱ـ التعویض عن العروض (الوزن) الشعری و القافیة. ۲ـ کما أنه یفید غایة حزن نازک من جرّاء موت عمته.

و النکتة الأخیرة التی تجب الإشارة إلیها فی هذا المجال هی أن نازک قد تستجیر باللیل فی التحرر من الأحزان المسیطرة علیها فی هذا الوجود . إنها تبدو أن نازک قد إختارت عنوان «ثورة علی الشمس» (دیوان عاشقة اللیل، ص۴۸۹) لإحدی قصائدها فی دیوانها «عاشقه اللیل» عن تعمد لتعلن أن النهار یعطی الإنسان الحزن و الأسی بینما اللیل یمنحه الراحة و الطمأنینة بحیث یلهمها شعراً و ألحاناً و یجعل روحها تطیر فی السموات العلیا لکی تنسی أحزان الوجود الضبابیة:

www.SID.ir

اللیـــلُ ألـحانُ الحـیاةِ و شِعـــرُها و مَطافُ آلهـةِ الجـمالِ الملـــــهمِ
تـهفوعلیه النـفسُ غیـــرَ حبـیسةٍ و تحلـقُ الأرواحُ فـــوقَ الأنجـمِ
کم سرتُ تحتَ ظَلامـــهِ ونُجـومِـهِ فنسیتُ أحـزانَ الوجـودِ المُـظلمِ
و عَلَی فَمـی نَغـمٌ إلهـیٌّ الصَّـــدَی تُلقیـه قافلةُ النجـــومِ عَلَی فـــمی

هذا اللیل حین یوحی بجماله و دجاه و همسه و صمته العمیق، المعانی العالیة القیمة و یطهر النفس ترجو نازک أن تسیر فی أحلامها اللیلیة فتسعد بها، و یبقی ابن البشر و یسعد بالنهار و شروقه:

و جمـالُ اللیـلِ قـد طَهّـرَ نفـسی بالـدُّجَی و الهمسِ و الصمتِ العمیقِ
أبـداً یملأُ أوهـــامی و حـــسی بمعانی الروحِ و الشِّعـــرِ الرقیـــقِ
فَدَعوا لی لیلَ أحلامـی و یأسـی و لَکم أنتـم تباشیـــرُ الشـــــروقِ

(المصدر نفسه، قصیدة «فی وادی العبید»، ص۴۸۴)

لکن اللیل لیس لیتخذ عند نازک هذا الوجه الإیجابی أبداً، بل نراها تشکو أحیاناً أخـری من اللیل بما یجره علی الإنسان من المآسی و یثیر فی نفسه الحزن. إنها حین تـری غریقـاً بـین أمواج البحر عند اللیل یغطس تارة ویطفو تارة أخری و قـد مـزق جـسده البـالی و أصـبح کمیت، تکره اللیل کرهاً عمیقا و تقول :

آه،یا قـیـثارتی، أیُّ المـآســی ! قـــــد کَرِهـــتُ اللیلَ أضـواءً و ظِـلّا
أیُّها الصیـادُ قِـف ألـقِ المَراسی إنَّ تحـــتَ اللیـلِ جـسماً مُـضمَـحِلّا

(المصدر نفسه، قصیدة «مرثیة غریق»، ص۵۱۰)

و لِمَ لاتکره الشاعرة اللیل، و هی تسمع فی ظلام اللیل أصوات الأحیاء و هـم یـصارعون الموت :

و تَعـالَی تحـتَ الـظلامِ صُـراخٌ رَدَّدَتـه الـریـــاحُ لـــلأشـجـــارِ
هو صـوتُ الأحیاءِ فی لجةِ المـو تِ و صَرعَـی الأمـــواجِ و الأقـــدارِ

(المصدر نفسه، قصیدة «الفیضان»، ص ۶۴۸)

Archive of SID

www.SID.ir

و یذهب اللیل إلی أبعد من ذلک و یقربها من الموت:

رَفَّ حولی اللیلُ و الصمتُ الکئیبُ و تَمشَّت فی کیانی الرعشاتُ

***

و اعتَرانی خاطرٌ مُشجٍ رهیبٌ و تجلّی لخیالاتی الممات

(المصدر نفسه، قصیدة «الغروب»، ص٥٤٠-٥٤١)

هکذا یتخذ اللیل عند نازک بعداً إیجابیاً عند ما یقترن بالأحلام و الإلهام الشعری و لکنه حین یقترن بالحزن و الموت یتخذ بعداً سلبیاً (محمد راضی جعفر ، ص ٤٨١).

ثالثاً : ضیاع الحب هو العامل الآخر الذی یبعث الحزن لدی نازک الملائکة. إن حب نازک لأنه حب إلهی و عذری و یرتفع بها إلی أعلی المستویات، فعندما یضیع و یمحو تتأسف نازک علیه قائلة:

کَیفَ ضاعَ الحُبُّ الإلهیُّ یا طا ئری الحُرَّ فانفَجَرَت ظُنُونا

(دیوان عاشقة اللیل، قصیدة «أشواق و أحزان»، ص ٥٥٤)

تلجأ نازک بعد أن تتحطم آمالها فی الحب الی المعبد لعله یسلیها عن العذاب و ینجیها من التشرد:

عُدتُ و القلبُ شیدٌ تائهٌ بینَ الضباب یتلوّی فی إسارٍ مِن حنینی و اکتآبی

آه فَارأف بفتاةٍ حطَّمَ الدهرّ مُناها وأفاقَت لیهدَّ الحزنُ والیأسُ قواها

معبدی افتَح لِقلبی البابَ قد طال وقوفی أنا مَن ماتَ ربیعی فی أعاصیرِ الخریفِ

(المصدر نفسه، قصیدة «العودة إلی المعبد»، ص ٦١٦)

یبدو أن هذا المعبد الذی تخاطبه نازک الشاعرة هو نفس الحبیب الذی أضاع الحبَّ، فنازک من فرط الحزن السائد علیها تلجأ إلیه و تصف حالها . إن هذا الفقدان للحب و المنی یجعلها کالمیت و الذی أشد وقعاً علیها هو أنّ هذا الموت قدجاءها عند ربیع عمرها أی شبابها .

کانت أیام الحب أیاما سعیدة و أیام أشواق و أحلام و ألحان و لهو ، لکنها الآن قد أصبحت أیام شقاء و تعاسة بحیث جعلتها کالأشلاء:

www.SID.ir

أیـنَ أمسی و هو أحلامٌ و ألحانٌ و لهـــو؟ أینَ أیّامـی إذا قلـبی مِن الأشواقِ خلوُ؟
ما الذی أبقی لی الحبُّ؟ أجسمی وَهْوَ نضوُ؟ وفؤادی وهو أوصالُ؟وروحی وهو شلوُ؟
(المصدر نفسه، ص ۶۱۸)

و لذلک تدعو نازک قلبها لأن تستفیق من الحلم و یعیش الواقع و یمتنع عـن الخـوض فی الأحلام لأنه لیس هناک شیءٌ یدعو إلی السعادة بل یدعو إلی الیأس و الکآبة فلهـذا تـسمی الحب شراً :

إدفنِ الأحـــلامَ یاقلبـی الخـیالـیَّ المحطَّمَ واستَفِق مِن قبـلِ أن یَنطَفئَ الحُلمُ فَتَندَم
ما الذی أغراکَ بالحُبِّ و مَن أوحی و ألهم؟ عجباً کیفَ تری الشرَّ بـعـینیک و تحلُم
(المصدر نفسه،ص ۶۱۸-۶۱۹)

إن الحبیب عند نازک یساوی السعادة و لذلک إنه حین لایأتی فی موعده، ذلـک یعـنی أن السعادة قدرحلت عن الحیاة :

و مرَّ المساءُ و کادَ یغیبُ جبینُ القَمَر/ و کِدنا نُشیّعُ ساعاتِ أُمسیةٍ ثانیه/و نشهدُ کیفَ تسیرُ السعادةُ للهاویه/ و لم تأتِ أنتَ .. و ضعتَ مَعَ الأمنیاتِ الأُخَر
(دیوان قرارة الموجة، قصیدة «الزائر الذی لم تجیء»، ص۳۲۷)

ما یلفت الإنتباه فی هذه الأبیات هو الجو الزمانی (المساء) الذی إختارته نازک، لأنه ینطبـق تماماً مع ما یختلج فی صدرها من مشاعر الحزن، فذاک الجو بظلامه و سـکونه یناسـب عاشـقةً حزینةً مثلها. کما أن تعابیرها الـشعریة کجـبین القمـر و تـشییع الـساعات کلـها نابعـة عـن الإحساس الرومانسی الحزین.

و عندما لا یبقی شیءٌ من الحب فی نفس نازک، تبغض الحبیب و تکره کل شیءٍ جمیل فی الوجود من الألوان و الأنغام إلی الأشعار التی کانت تصب فیها حبها ، کما لم تعد الذکریات بالنسبة إلیها حلوةً بل إتخذت شکـلاً خشنـاً و ممقوتاً :

و أبغضتُ اسمَکَ الملعونَ و الأصداءَ و الظلا کرهتُ اللونَ و النغمةَ و الإیقاعَ و الشـکلا

Archive of SID
www.SID.ir

و تلـك الذكـرياتُ الخشنةُ الممقوتةُ الفظـه هَوَت و تَآكَلَت و ثَوَت مَعَ الآبادِ فی لحظه

(المصدر السابق، قصيدة«عندما قتلت حبی»، ص۳۳۷-۳۳۸)

و هذا الإحساس يدفعها إلى أن تقتل الحب و تدفنه فی الثری، لكنها قـد أدركـت أنهـا لم تقتل سوى نفسها، فعدم وجود الحب لدى نازك يساوى الموت:

و كنتُ قتلتُك الساعةَ فی ليلی و فی كأسی و كنتُ أُشيّعُ المـقتولَ فی بُطءٍ إلى الرَّمسِ

فأدركتُ و لـونُ اليـأسِ فـی وجهی بأنّـی قـطُّ لم أقتُـل سـوى نـفسی

(المصدر نفسه، ص ۳۳۹)

فهذا المصير الذی تصل إليه نازك فی الحب لم يكن غريباً، لأنها حين سمّت الحب شراً كـان يتوقع أن يسلم نازك إلى الموت.

رابعاً: الغربة هی أيضاً تسبب حزن نازک و لذلک تأتی أشعارة مغلفة بالحزن . إنها عنـدما ترى أن الغربة قد قربتها من حدود الموت و تضيع عمرها الشاب تشكو قائلةً :

وحدتـی تقتُلُنی و العُمرُ ضاعا و الأسَـی لم يُبـقِ لی حُلماً جـديد

وظـلامُ العيـشِ لم يُبقِ شُعاعا و الشبـابُ الغـضُّ يـذوی و يَبيـد

(ديوان عاشقة الليل، قصيدة «فی وادی العبيد»، ص۴۸۱)

هذا الحزن المسيطر عليها يدفع نازک نحو الحلم لعله ينجيها عن عذابه :

و أحلـمُ أحلُـمُ لاأسـتفيـ ـقُ إلا لأحـلُمَ حُلـماً جـديـد

(ديوان شظايا و رماد ، قصيدة «يوتوبيا الضائعة»، ص ۴۶)

و يبدو هذا الحلم او الخيال يفعل فعله، فتبنی نازک مدينة حلـم تـسميها يوتوبيـا حيـث لاظلام فيها وتجری الحياة فيها دائما و لا توجد فيـه آلام الحيـاة و لايحـدها زمـان و حيـث الشباب لايرحل عن سكانها:

و يـوتـوبيا حُـلمٌ فـی دمـی أمـوتُ و أحـيا علـی ذكـره

تخـيّلتُه بلـداً مِـن عبـير علـی أفـقٍ حِـرتُ فـی سرِّه

***

www.SID.ir

يـوتـوبيا حيـثُ يَبـقَى الضياءُ و لا تـغـرُبُ الشـمسُ أوتغـلسُ
و حيـثُ يـظلُّ عبـيرُ البنفسجِ حيّـاً و لايـــذبلُ النـــرجسُ
و حيـثُ تَفيـضُ الحياةُ رحيقاً نميراً و لا تـــفرغُ الـكـــؤوسُ
و حيثُ تـضيعُ حدودُ الزمـانِ و حيـثُ الكـواكـبُ لاتنـعسُ
هُناكَ الحياةُ إمتـدادُ الـشباب تفـــورُ بنَـشـــوتِه الأنـــفسُ
هناكَ يـظلُّ الـــربيعُ ربيـعاً يُظلِّـل سكـّـانَ يـوتـــوبـيا

(المصدر السابق، قصيدة «يوتوبيا الضائعة»، ص ۳۸-٤۰)

هذه اليوتوبيا التی تقيمها نازک، سواء فی الفرار من «الأمس الميت او الغد الرهيب» (إحسان عباس، ص ۷۶-۷۷) تمثل أولاً : الغربة الروحية التی تعانی منها الشاعرة، فينبعث خيالها و يبنی «لامكانا و لازمانا» لتطير فيها روحها الحزينة بحرية كاملة و تخف حدة غربتها و تمثل ثانية: الغربة المكانية التی تحس بها نازک إذا ما ترى واقعها و حاضرها حافلا بالأسی و المرارة و الظلام، ففی هذه الحالة تحلم بـ «يوتوبيا» التی تخلو من فوضی الواقع الراهن و يسودها الضياء والحياة و تمنح الشاعرة هدوءاً و أماناً. إن نازک عندما ترى واقعها مغشيا بالظلام و الركود، تتجه نحو الطبيعة و تقيم يوتوبياها فيها. بعبارة أخرى إنها تقصد أن تقيم مدينتها الحلمية من جنس الطبيعة، من جنس الأشجار و خرير المياه والأنغام،ـــ المدينة التی تختلف تماما عن التی تعيش فيها- لتخرج واقعها من الحالة الخامدة فينبض بالحياة :

تَفَجَّری ياعيونُ/ تفجَّری بالجمالِ/ وشيِّدی يوتوبيا فی الجبالِ/ يوتوبيا من شَجَراتِ القُمَمِ/ و مِن خريرِ المياهِ/ يوتوبيا مِن نَغَمٍ / نابضةٍ بالحياةِ

(المصدر نفسه، قصيدة«يوتوبيا فی الجبال»، ص ۱۵۴- ۱۵۵)

هذا النداء الذی توجهه الشاعرة إلی العيون و تخلعها الصفة الإنسانية حين تقول «شيدی» إنه نابع من إحساس شخص غريب يحاول بعمله هذا ان ينجو من غربته و حزنه.

Archive of SID

www.SID.ir

٣. عبدالوهاب البیاتی:

إنّ دیوان «ملائکة و شیاطین»، و الذی یمثل أول دیوان للشاعر البیاتی، یفصح للقارئ عن روح باکیة حزینة لقائل أشعاره، بحیث یعترف البیاتی نفسه فی أول شعر یُعَدُّ فاتحة الدیوان ، بأن الأحزان و الآلام النفسیة هی التی تنسج سدی الدیوان و لُحمته:

أَیَلوذُ فی أدارجِ مکتبِه شِعری و تُنسَی فیه أشجانی
و هناؤُه مِن نارِ عاطفتی شفتای تَغزلُه و أحزانی

(عبد الوهاب البیاتی، دیوان«ملائکة و شیاطین»، ص٢١-٢٣)

العامل الأول: الذی یجعل قصائد الدیوان تأتی مغلفة بالشجن و یبعث الشاعر علی الإنطلاق عن نفسیة کئیبة، هو تجربته الفاشلة فی الحب الذی تعرض لها منذ سن الطفولة. فهذه التجربة المریرة تقدم أشعاراً تحمل فی طیها التعبیر الرومانسی تجاه الإحساس بالحزن و الألم الذی أحدثته فی ذاتیة البیاتی . إن البیاتی قد وقع قلبه مبکراً فی حب جارته و انتهی حبه ذلك إلی الفشل و لذلک قد أصبحت ذکریاته عن ذاك الزمن لا تملی علیه إلا الحزن و الکآبة و لذلك یصفها (الذکریات) میتةً:

لا شَیءَ حتّی ذکریاتُ الصبا عادَ بها الشوقُ فَمائَت هُنا

(المصدر السابق، قصیدة «فی مقابر الربیع»، ص٢٤)

الأثر النفسی الذی یترکه هذا الحزن یدفعه لیصور الحب مدفوناً فی القبور و یری الجنة (الربیع) کالصحراء المقفرة:

إن هَبَطَ الفَجرُ غداً لَن تَری إلا قُبورَ الحُبِّ فی المنحنَی

***

فَعادَت الجنّةُ مهجورةً قافلةً إلا بقایا جنَی

(المصدر نفسه، ص٢٤- ٢٥)

Archive of SID

www.SID.ir

إنه حين يشعر أن نار عاطفة الحب تكاد تخبو فی نفسه، يحاول أن يشعلها مرة أخرى و لذلك يخاطبها قائلاً : يا بقايا اللهيب إنهضی من نومك و أجْرِ فی دمی الحياة و أخرجينی من الحزن و الصمت الذی أنا فيهما إذ أن الهوی عاد إلیَّ و علیّ أن أعيش حياة جديدة دون الحزن:

يا بقايا اللهيبِ عادَ ربيعی ... فَاستفيقی و أيقِظی أعراقی
ذوِّبی هذه الثلوجَ و طُوفی ... كالفراشِ المحمومِ فی آفاقی
والهَوَی والربيعُ عادا فَعودی ... بسماتٍ فی خُضرةِ الأوراقِ

(المصدر نفسه، قصيدة «بقايا لهيب»، ص ٢٨-٢٩)

يعتبر البياتی الحب بالنسبة إليه كالربيع يمنحه الحياة و الفرح و النشاط و يخرجه من الجمود و الركود و لذلک حين يرسم تصويره عن تأثير الحب فيه، يعاوده خيال الذكريات الأليمة فی الحب و يوقعه فی الحزن و اليأس فتنطفیء أشواقه مرةً أخری:

يا بقايا اللهيبِ فی أعماقی ... ثورةُ اليأسِ أطفَأت أشواقی
وثُلوجُ الحرمانِ ذابت برُوحی ... وجَرَت فی دمی نشيشُ سواقِ
و خَيالاتی التی أهْبَتنی ... فی صباي المجنونِ شَدَّت وثاقی
يا بقايا اللهيبِ فی أعماقی ... مَزِّقی ... مَزِّقی شِراعَ انطلاقی
و مِنَ اليَأسِ و الرَّجاءِ فَعُودی ... أو تَواری ! إنِّی عَلَی اليأسِ باقِ

(المصدر نفسه، ص ٢٨-٢٩)

إن البياتی الحزين يسعی فی محاولة منه لكی يعيد حيوتيه التی كانت تغمره فی أيام حبه، لذلک يصرخ بقوة يا بقايا اللهيب مزقی مزقی و هدمی ما علیَّ من الألم . فهذا التكرار الذی يورده البياتی (مزقی مزقی) جاء فی التأكيد علی محاولته للتخلص من الحزن كما أنه يلعب دوراً فی خلق جو موسيقی عند إنتقال التأثير النفسی للحزن علی القارئ . كما أن هذا التأثير يبعثه علی أن يناجی الحب و يشخص المعنوی (عاطفه الحب) و يمنحه الصفات الحسية. هذه

www.SID.ir

الذکریات المؤلمة عن الحب المیت لا تدعه فی الراحة بل تجول دائماً فی خاطره و صحراء قلبه فتواجه محاولته فی نسیان ذاك الحب عبثاً :

قَلبی الحزینُ عَرَفتُ ما فیه ... ذِکری تُوَشوشُ فی صحاریه
تَعبی کأخیلةٍ ... مُلوَّثةٍ ... مَبورةٍ بخیال ... مَعتوه
وتَلوذُ بالکتمانِ إن عَبَثَت ... کفِّی بجرحٍ کُنتَ تُخفیه
قَلبی الحزینُ عَرَفتُ ما فیه ... الحبُّ ماتَ ولم تَزَل...فیه
ذکری تُوشوشُ فی صحاریه ... و تهیمُ باکیةً تُنادیه

(دیوان ملائکة و شیاطین، قصیدة «الأخیلة الملوثة»، ص ٣٢-٣٣)

تعبیر «صحراء قلبی» یمثل عمق الإحساس بالحزن لدی البیاتی، فالحزن قد أخمد جذوة عاطفته کما أنه قد جمَّد خیاله فقلبه أصبح کبادیة جرداء لا یخفق و لا ینبت فیه أملٌ إذ الکآبة أصبحت تجول فیه.

إن البیاتی قد یجد صورته الکئیبة فی الطبیعة کأنه حلَّ فیها أو أنها حلَّت فیه و لذلک نری خیاله یبدأ فی رسم حزن الطبیعة التی أصبحت تشارک البیاتی فی عذابه و ألمه :

هذی أزاهیرُ الهَوَی ... ذابلةً مُعطَّبه
عبیرُها جَفَّ عَلَی ... صورتِها المحجَّبه

(المصدر نفسه، قصیدة «ماأبعد الماضی»، ص٣٤)

و هذا الحزن المریر قد سلب منه السکینة التی کانت توحیها أناشید الماضی و الطفولة، کما قد شوَّش فکره و ذهنه الحالم بالصفاء فجعله باکیاً غیر مطمئن البال و الروح :

أُنشودةُ الماضی و تمثالُ الطفولةِ لی عَزاء/ و عرائسُ فی فکری الخلّاقِ تحلُمُ بالصَّفاء و ذُبالةٌ فی الجانبِ المهجورِ تُشرقُ بالبکاء/ فَتَسودُ فی نفسی السکینة/ أین یا نفسی العَزاء

(دیوان ملائکة وشیاطین، قصیدة «حلم فی کوخ»، ص ٣٦-٣٧)

Archive of SID

www.SID.ir

یعود البیاتی فی التخلص من ألمه إلی ماضی الطفولة الذی یمنحه العزاء و فی تصویر هذا العمل الرومانسی یستعین بالألفاظ و التصاویر ذات الدلالة الرومانسیة ، فعرائس الأحلام خلقها خیال البیاتی للوصول إلی السکینة التی یشیر إلیها فی الأبیات اللاحقة. لکنه رغم هذا الظلم الذی یرتکبه الحب المریر فی حقه، یصر علیه و یبحث عن الحبیبة فی کل الأحوال، فی الصحو و الحلم، و الدیار البعیدة، و النوم:

لکن سَأبحثُ دُونَ جَدوی عَنك یا رُوحَ الحبیبةِ/ فی الصحوِ فی الأحلامِ فی الأحراجِ فی الجُزُرِ البعیدةِو أهیمُ کالمشدوه فی صحراءِ حِرمانی الکئیبةِ/ و أصیحُ فی نَومی و أسالُ عَنكِ/ یا رُوحَ الحبیبةِ

(المصدر السابق، ص ۳۷)

ینتظر البیاتی من الحب لکی یفرحه و ینشطه و یبعثه علی نظم الأناشید المطربة، و لکن یواجه ما یخیب أمله فیری الحب قد حَوَّلَه إلی رجل عجوز و هو فی ریعان شبابه:

فَمددتُ کفِّی ، أینَ حُبِّی یا أغانی ، یا رموزُ / هَل ماتَ حُبِّی و استحال/ فُؤادی الباکی عَجُوز

(المصدر نفسه، ص ۳۸)

یبدو أن هذا الحب المریر و خیال المعشوقة هما اللجوجان لا یفارقان البیاتی فی کل حال، لذلك و لأن البیاتی یخاف علی نفسه من وطأتهما الثقیلة، فیحاول لکی ینساهما لعله یتوصل إلی الراحة المنشودة :

هُبوباً هُبوباً لعلّی أطیرُ ... لعلِّی أنسَی هَواها المریر

لعلّی أنسَی صَباحَ الهَوَی ... و خُضرَ العُیونِ و لیلَ القُبور

لعلی أنسَی زمانی الشَقی ... و یَبرحُ رُوحی مَکانی الوَعیر

(المصدر نفسه، قصیدة«کیف أطیر»، ص۸۰)

Archive of SID

www.SID.ir

إن مرارة الحب قد جعل البیاتی فی هذه الأبیات لکی یلتمس الطیران و ینجو منها کما أنها قد بعثه علی التکرار اللفظی للعبارة «لعلی أنسی» التی تبوح عما یجیش فی صدره من الکآبة المسیطرة علیه.

یلجأ البیاتی فی التخلص من أسر الحزن إلی اللیل و سکونه، لعله یسلیه عما به، لکن الذکریات المظلمة تهجم علیه و توقعه ثانیة فی حزن ثقیل بحیث یقربه من حافة الردی، لکنه یظل یتمنی النجاة و الرحمة:

و أقطَعُ لیلی أُنادی النجومَ و لَیلی مِن قلبِه أُرحمُ
أُنادی فَتَغمرُنی الذکریاتُ و یَغمرُنی مَوجُها المظلمُ
وتعصفُ بی عاصفاتُ الرَّدی فَأُرنُو إلیه وَ أُسترحِمُ

(المصدر نفسه، قصیدة «برعم»، ص٤٠)

هذه الصورة الرومانسیة التی یصوره البیاتی فی التعبیر عن إحساسه المحزون، یذهب بالقارئ إلی التصاویر الشعریة المعهودة فی الشعر القدیم عند الحدیث عن الحب کمثل هذه الأبیات عن إمرئ القیس:

ولیلٍ کَموجِ البحرِ أرخَی سُدولَه عَلَیَّ بأنواعِ الهمومِ لِیَبتَلی
فَقُلتُ لَهُ لَمّا تَمَطَّی بِصُلبِه و أردفَ أعجازاً وناءَ بکلکلِ
ألا أیُّها اللیلُ الطویلُ ألا انجلِی بِصُبحٍ وما الإصباحُ مِنکَ بأمثلِ
فیا لَکَ مِن لیلٍ کأنَّ نجومه بِأمراسِ کتّانٍ إلی صُمٍّ جَندَلِ

(الزوزنی،ص٢٦-٢٧)

إن الشاعر إمرئ القیس یسعی إلی تصویر حزنه المثقل علیه تصویراً حسیاً، کالذی جرَّبه فی حیاته، و خیاله فی هذا التصویر خیال جامد. لکن التصویر الذی یرسمه البیاتی یعمل خیاله فیه أشد إعمالاً فهو یبدأ فی المناجاة مع النجوم، و یخلق موجاً مظلماً یهجم علیه کما أن عاصفة الموت تهبُّ علیه و تهزُّ کیانه و لیس کل هذا إلا تعبیراً عن الذی یجیش بخاطره الحزین.

www.SID.ir

إن البیاتی یحلم و یعود علی جناح رؤیاه إلی ماضیه الحلو فی الطفولة و الهوی، لعله یتسلی عما به، لکنه یقع ثانیةً فی شراك الحزن إذ یری فی الحلم أیضاً أن شبابه قد ضاع فی طریق حب المحبوبة التی لم تسمع حتی إلی صرخاته المظلومة:

حُلمٌ أعادَ إلی فُؤادی شَوقَه و أعادَ لی ما مَرَّ مِن سَنَواتِ

***

حُلمی الشَقی یَکادُ ـ رغمَ شُحوبه ـ أن یَنجَلی وَ یهیمُ فی الظُلُماتِ
لِیَری التی قَتَلَت شَبابی عَنوَةً وَ مَضَت و لم تَسمَع صَدَی صَرَخاتی

(دیوان ملائکة و شیاطین، قصیدة «حلم»، ص ۸۱-۸۲)

عندما یخفق البیاتی فی حبه عدة مرات یستحضر أسطورة سیزیف الیونانیة و یعتبر عمله فی الحب الذی تخونه المحبوبة کلما یحبها، کعمل سیزیف الذی کان یحمل صخرةً إلی قنة الجبل ثم یلقیها الآخرون إلی السفح و کان یکرر عمله ، فالبیاتی أیضاً یلح علی حبه ـ و لو یواجه الفشل و یسخر منه الأفراد ـ حتی الموت:

ظَمآنٌ لِلرِّی و ما حیلتی و الجَدبُ عُقبَی حُبِّی العُذری
سیزیف قد کانَ و لم یَزَل یَهِمُّ بالشَّکوی و لا یحری
تَرمقُه عن کَثَبٍ حسرةً غَواربُ الأمواجِ فی البحرِ
و النجمُ مِن عَلیائِه ساخراً یَرمقُهُ بالنَّظَرِ الشزرِ
و هو عَلَی صَخرتِه مُنحنٍ تَهوی به مِن قِمَّةِ الدَّهرِ
ظَمآنٌ لِلمَوتِ و ما ضَرَّنی إن مِتُّ مَطویّاً علی سِرّی ؟

(المصدر نفسه، قصیدة «ظمآن»، ص۱۱۰)

هذا و هذه النغمات الحزینة عند الحدیث عن الحب توجد فی سائر دواوینه متمثلة فی قصائد من مثل « لثعبان» (دیوان کلمات یموت، ص ۴۰۷)، «أغنیة المحکوم بالحب» (المصدر نفسه،ص۴۲۱، « لرحیل إلی مدن العشق» (دیوان کتاب البحر، ص۳۰۴)، «قراءة فی دیوان

Archive of SID

www.SID.ir

«شمس تبریز» لجلال الدین الرومی» (دیوان مملکة السنبلة، ص ۴۵۱) و ... فهذا البیاتی یقول فی الأخیرة :

کانت عائشةُ فی شُقَّتی ناياً یَبکی/ و أنا أحکی/ عَن ألَمِ الحُبِّ

العامل الثانی: إن عبدالوهاب البیاتی بما کان یحمل فی داخله من الأفکار السیاسیة الثوریة تجاه واقعه الألیم و بما أخذ یجوب البلاد إثر قضایا، سیاسیة، إجتماعیة و ثقافیة، سواء داخل وطنه أو خارجه فیشعر أحیاناً بالغربة فیصدر شعوره ذلک عن إحساس حزین.

إنه عندما یری الأبواب و الطرق کلها مسدودة أمامها فی الغربة و لا یشعر بالضیاء حتی عند النهار و تمضی أیامّه و أعوامه فیها فی الظلام و کجریح مضرج بالدماء فیرسم حاله بتصاویر محزنة:

ضوءُ النهارِ/ یَمتصُّ أعوامی، و یَصقُها دماً، ضوءُ النهارِ/ أبداً لأجلی لم یَکُن هذا النهارُ البابُ أُغلِقَ ! لم یَکُن هذا النهارُ / أبداً لأجلی، لم یکن هذا النهار

(دیوان أباریق مهشمة، قصیدة «مسافر بلاحقائب»، ص ۳۶)

إن أجمل شیءٍ یتراءی للإنسان فی النهار الجمیل هو الضوء لکنه یتجسد للبیاتی فی صورة موحشة حین یمتص دمه و لذلک یقول و هو حزین أن هذا النهار لیس من أجلی إذ هو یسوقه إلی الموت . و لذلک یشبه نفسه فی الغربة و فی وحدته إلی قطرة وحیدة من المطر العقیم لا تحرُّکَ له و الموت مسیطر علیه ، لذلك یقول عن نفس حزینة :

و أنا .. / و أنتَ ؟/ أنا وحید !/ کقطرةِ المَطَر العقیمِ، أنا وحید !

(المصدر نفسه، قصیدة«عشاق فی المنفی»، ص ۱۶۳)

و من القصائد التی تمثل الحزن الناشئ عن الغربة هی التی أنشدها أثناء إقامته فی العاصمة النمساویة «فیننا». فهو یشرح إحساسه فیها قائلاً : «.. کانت الرحلات القصیرة إلی أریاف النمسا و قراها مع صدیقی «ذوالنون أیوب» و مع الطلبة العرب الذین یدرسون هناك تغریني بکتابة الشعر و تملأنی حیناً إلی الوطن ، فکانت قصائدی التی کتبتها فی هذه المرحلة و التی ضمتها مجموعتی «کلمات لا تموت» متمیزة و شفافة بشکل واضح، ترتسم علیها مسحة

www.SID.ir

خفيفة من الحزن، لقد كانت رحلتي الأولى إلى أروبا و كانت مع جمالها و سحرها الذى لم نر مثله من قبل موحشة و صامتة و غريبة، و قد كنت أخترن هذه الوحشة و هذا الصمت و الغربة و أبعثها من جديد فى قصائدى التى كتبتها هناك..» (عدنان الصائغ ـ محمد تركى النصار، ۱۹۹۶، ص۱۲۳). هذا هو البياتى يصور نفسه فى فيننا :

حلُمتُ/ أنى هاربٌ طريدٌ / فى غابةٍ / فى وطنٍ بعيدٍ / تَتّبعُنى الذئابُ / عَبرَ البرارى السودِ و الهضابِ/ حلمتُ/ و الفراقُ يا حبيبتى عذابُ / أنّى بلا وطنٍ / أموتُ فى مدينةٍ مجهولةٍ / أموتُ / يا حبيبتى وحدى بلا وطن

(ديوان كلمات لاتموت، قصيدة «قصائد من فيينا ـ الطريد، ص۳۹۲)

إن شدة وطأة الغربة بعثت البياتى الحزين كى يخيل نفسه كطريد متشرد تتبعه الذئاب و الذى يضاعف حزنه هى ذكريات الفراق عن الحبيبة و لذلک يشعر أنه مشرف على الموت.

سنوات البياتى فى الغربة سنوات مجدبة قاسية، إذ إن البيئة التى نزلها البياتى بيئة باردة لا نشاط و بهجة فيها، و لا تسمع فيها أغاريد العصافير و يسودها جو الشتاء ، لذلك يشكو حزيناً من تلك السنين و جورها، و يذبل فيها كذبول الأزهار :

مدنٌ بلا فجرٍ يُغطِّيها الجليدُ/ هَجرَت كنائسَها عصافيرُ الرَّبيعِ / فَلِمَن تُغَنِّى ؟ ...أهكذا تَمضى السنونُ ؟/ و يُمزّقُ القلبَ العذابُ ؟/ و نَحنُ مِن منفىً إلى منفىً و مِن بابٍ لِبابٍ /نَذوى كما تَذوى الزنابقُ فى التُّرابِ

(ديوان سفر الفقر و الثورة، قصيدة «قصيدتان إلى ولدى على»، ص ۲۳)

ترسم هذه الأبيات حزن البياتى فى الغربة من جهة و من جهة أخرى تصدر عن نفس حزينة ثائرة ضد المجتمع و المدنية الجديدة التى قدحوّلت كل شئ إلى الخمود و الركود حيث لايسودها سكون القرية و صفاؤها الذى ترعرع البياتى فى ظلها .

قد يشكو البياتى إلى ربه من غربته التى ضيعت شبابه و حولته إلى شيب، و جفَّ دمُه فيها فى أعراقه و قطعت أوصال جسمه و أصبح كحجر مكسر رميم و كورق هشيم مشرفاً على الموت، فيتمنى منه ليعيد الحياة إليه بإعادته إلى الوطن :

www.SID.ir

مِن أسفلِ السُّلَّمِ ناديتُك، يا ربّاه/ جلدی يَسَّاقطُ فی الظَّلامِ/ شَعری شابَ، طائرُ الشَّبابِ يسفُّ فی الضبابِ مُنكسرَ الجناحِ/ النسغُ فی العروقِ و الأوراقِ/ يجفُّ مثلما يجفُّ الحبرُ فی الدواه... ربَّاه طالَت غُربتی ربّاه !/ ... الليلُ طالَ ، طالَت الحياةُ/ فأينَ يا ربّاه !/ شمسُك ! تُحيی الحجرَ الرميمَ/ و تُشعلُ الهشيمَ

(ديوان الذی يأتی و لايأتی، قصيدة «الحجر»، ص ۸۱-۸۲)

هذه الألفاظ التی يستخدمها البياتی أی (أسفل، الظلام، شابَ ، الضباب، منكسر الجناح ، يجف، الحجر الرميم، الهشيم) جاءت لتخدم تصوير حزنه القاتل فی الغربة و لذلک ليس من المستغرب أن تكون الأشعار التی أنشدها فی الغربة الباعثة الحزن بكاءً و إبتهالاً :

أُغنِّی لِوحدی احتضار السنا/ أُغنِّی أنا/ غَنائی ابتهال

(ديوان أشعار فی المنفی، قصيدة «طريق العودة»، ص ۲۷۲)

نتائج البحث:

ظاهرة الحزن قد صارت منذ فترة الرومانسيين كموقف ذاتی لا تأتی عند تجربة شعرية رثائية حزينة فحسب بل هی تأتی ممتزجةً بسائر الموضوعات الشعرية، و لذلك أصبحت هذه الموضوعات من الوجوه و المظاهر التی تثير الحزن عند الشاعر. إن الحزن الرومانسی الذی يستشف من خلال أشعار الشعراء الرواد الثلاثة للشعر الحّر (بدر شاكر السياب، نازک الملائكة، عبدالوهاب البياتی) تقف وراء إثارته عوامل تشترك بينهم فی أكثرها: فالحب الرومانسی و الموت و الغربة هی مواقف مشتركة بينهم فی الإحساس به . و لكن الثنائية التی تؤدی إلی التشاؤم و الشک عاملٌ يخص نازك فی الشعور بالحزن. التأثير النفسی الذی يتركه الحزن علی هؤلاء الشعراء يخرج بنتاج شعری ينطبق تماماً مع ما نشاهده و نقرأه عند كبار الرومانسيين كخليل مطران و أبوالقاسم الشابی و غيرهما . و هذا التأثير يتجلی فی الناحتين من إنتاجاتهم : ۱ـ فنياً ۲ـ مضموناً و تعبيراً .

Archive of SID

www.SID.ir

۱. فنياً:

أكد هؤلاء الشعراء الثلاثة على التصوير فى أشعارهم عند الحديث عن إحساسهم الحـزين. و الخيال يُعَدّ مصدراً هاماً لصورهم الشعرية، الخيال الـذى يخـرج بهـم مـن دائـرة واقعهـم و إحساسهم المّر الحزين و هذا الخيال أكثره يؤطّره الحس. إن التشخيص و التجسيد الـذى يعـد من المعالم البارزة فى المذهب الرومانسى (عمـران خـضير حميـد الكبيـسى، ص ۸۲)، يـشكل حضوراً بارزاً و ملحوظاً فى أشعارهم. فهـم يشخـصون أحيانـاً المعنويـات و أحيانـاً أخـرى يقومون بتشخيص الماديات. و ذلك يـدلُّ علـى حـضور الخيـال الواسـع الرومانـسى لـديهم فتشخيصاتهم حسب الموضوع تختلف من شاعر إلـى آخـر، فلـدى الـسياب و البيـاتى يـبرز التشخيص فى موضوع الحب، بينما يبرز التشخيص لدى نازك فى موضوع الموت.

الحلول الشعرى هو سمة أخرى فنية التى نجد حضوره فى أشعار السياب، البيـاتى و نـازك، فكلهم يمتزجون بالطبيعة، بحيث تشارك الطبيعة أحزانهم فكأنهم حالٌّ فيها أو كأن الطبيعة حالّةٌ فيهم.

إن التناسق الفنى خاصة تناسق التعبير مع المضمون و مع الإيقـاع الموسـيقى قـد جـاء فى أشعارهم بصورته العالية، بحيث تعبيرهم الحزين يبعثهم أحياناً على التكرار الذى يخدم بـدوره الإيقاع الموسيقى و العروض الشعرى و من المواضع الفنية الأخرى الـتى تتجلـى للعيـون هـو تصوير الحالات النفسية إثر الوقوع فى الحزن ، التصوير الذى يمتلك قيمة واضحة فى نقل تلـك الحالات إلى الأذهان و رسمها فى الخيال. فمن الحـالات النفـسية الـتى يرسمونهـا مـن تـأثير الأحزان الحب الرومانسى هى إشرافهم على الموت.

يحضر البياتى و السياب عند المحاولة فى التخلص مـن حـزنهم صـورة أسـاطير كهرقـل و سيزيف و هذا ما لا نراه عند نازك. و تتميز نازك بغناء الحزن و الألم الذى لا يتناوله السياب و البياتى . كما يتميز السياب بإعطاء بعض الألفاظ (كالمطر) بعداً حزيناً و ذلك بمـا يـثير مـن الذكريات الحزينة كما أنه يتخذ بعداً إيجابياً بما يهبه مـن العطـاء و الخـصب. و قلـبُ الـصورة الشعرية عمل يخص السياب و لا نشاهده عند البياتى و نازك.

Archive of SID

www.SID.ir

۲. مضموناً و تعبیراً:

إن التعابیر التی یستعملها السیاب و نازك و البیاتی للإعراب عن شعورهم الألیم تشترك لدی بعضهم. فکلهم للتخلص من حزنهم یلجاؤن إلی اللیل حیث یسود السکوت و الصمت، و یشبهون شبابهم إلی الربیع، و الذی یضیع من أجل تأثیر الحزن علیهم. إن الألفاظ التی یعبرون بها عن خواطرهم الحزینة فهی فی أکثرها مشترکة عندهم. إن الحزن یسبب جمود الینابیع الشعریة عندهم کما أنه یبعث ذکریات الماضی و الطفولة و یجعلهم أن یلجأوا إلیها فی التحرر من کآبتهم. و أخیراً یأتی الحزن الذاتی عند السیاب و نازك مقدمة للحزن الجماعی الذی لا نشاهده فی أشعار البیاتی المملئة للحزن.

المصادر و المراجع :

البستانی، فؤاد أفرام: *المجانی الحدیثة عن مجانی الأدب* شیخو، إنتشارات ذوی القربی، قم، ۱۹۹۸م.

البیاتی، عبدالوهاب: *دیوان عبدالوهاب البیاتی* (المجلد الأول و الثانی)، دارالعودة، بیروت، ۱۹۹۰ م.

ترحینی، فایز: *الأدب؛ انواع و مذاهب*، النخیل، بیروت، الطبعة الأولی، ۱۹۹۵م.

جبران، جبران خلیل، *المجموعة الکاملة لمؤلفات جبران خلیل جبران*، دار صادر ـ دارنوبلیس، بیروت، ۱۹۹۷م .

جعفر، محمد راضی: *الأغتراب فی الشعر العراقی المعاصر* (مرحلة الرواد)، من منشورات إتحاد الکتاب العرب، و هذا الکتاب منشورٌ علی الموقع الإنترنتی www.awu-dam.com.

حسن، عبدالکریم: *الموضوعیة البنیویة* (دراسة فی شعر السیاب)، المؤسسة الجامعیة للدراسات و النشر و التوزیع، بیروت، ۱۹۸۳م.

الزوزنی، *شرح المعلقات السبع*، منشورات ارومیة، قم، مطبعة أمیر، ۱۴۰۵ هـ . ق.

السیاب، بدر شاکر: *المجموعة الشعریة الکاملة* (الجزء الأول و الجزء الثانی)، دارمیّة، دمشق، ۲۰۰۶ م.

الصائغ، عدنان ـ النصار، محمدترکی: *عبدالوهاب البیاتی ـ ما یبقی بعد الطوفان* (آراء، مختارات شعریة، سیرة و حوار)، نادی الکتاب العربی، لندن، ۱۹۹۶م.

ضیف، شوقی: *تاریخ الأدب العربی* (العصر الجاهلی)، دارالمعارف، مصر، لاتا.

عباس، إحسان: *إتجاهات الشعر العربی المعاصر*، دارالشروق، عمان، ۲۰۰۱ م.

عباس، إحسان، *بدر شاکر السیاب* (دراسة فی حیاته و شعره)، دارالثقافة، بیروت، الطبعة الخامسة، ۱۹۸۳م.

علی، عبدالرضا: *نازك الملائکة الناقدة*، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر، بیروت، ۱۹۹۵ م .

Archive of SID

www.SID.ir

الفاخوری، حنا: *تاریخ الأدب العربی*، إنتشارات توس، تهران، چاپ حیدری، ۱۳۷۷ هـ.ش.
الکبیسی، عمران خضیر حمید: *لغة الشعر العراقی المعاصر*، وکالة المطبوعات، الکویت، ۱۹۸۲ م .
المتنبی، أبوالطیب، *دیوان المتنبی*(المجلد الأول و الثانی)، شرحه عبدالرحمن البرقوقی، دارالفکر، بیروت، ۲۰۰۳ م.
مطران، خلیل: *دیوان الخلیل*، الجزء الأول، دارمارون عبود، بیروت، ۱۹۷۵ م.
الملائکة، نازك: *دیوان نازك الملائکة* (المجلد الأول و الثانی)، دارالعودة، بیروت، ۱۹۹۷م .
الملائکة، نازك: *لمحات من سیرة حیاتی و ثقافتی*، و هی منشورة علی الموقع الإنترنتی : www.arabworldbooks.com
هدارة، محمد مصطفی: *بحوث فی الأدب العربی الحدیث*، دارالنهضة العربیة، بیروت، ۱۹۹۴م.
الورقی، السعید : لغة *الشعر العربی الحدیث* (مقوماتها الفنیة و طاقاتها الإبداعیة)، دارالنهضة العربیة، بیروت، ۱۹۸۴م.
الیسوعی، الأب لویس شیخو: *مجانی الأدب فی حدائق العرب*، دارالمشرق، بیروت، ۱۹۹۲م .

Archive of SID

www.SID.ir